مصطفى محمود

لغز الموت



دار المعارف

لغز الموت

مصطفى محمود

لغز الموت

الطبعة السابعة



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

اللغـز

كل منا يحمل جثته على كتفيه..

ليس هناك أغرب من الموت..

إنه حادث غريب..

أن يصبح الشيء.. لا شيء..

ثياب الحداد.. والسرادق.. والموسيقى.. والمباخر.. والفراشون بملابسهم المسرحية: ونحن كأننا نتفرج على رواية.. ولا نصدق ولا أحد يبدو أنه يصدق..

حتى المشيعين الذين يسيرون خلف الميت لا يفكرون إلا فى المشوار.

وأولاد الميت لا يفكرون إلا فى الميراث.

والحانوتية لا يفكرون إلا فى حسابهم.

والمقرئون لا يفكرون إلا فى أجورهم..

وكل واحد يبدو أنه قلق على وقته أو صحته أو فلوسه..

وكل واحد يتعجل شيئا يخشى أن يفوته.. شيئا ليس الموت أبدا.

إن عملية القلق على الموت بالرغم من كل هذا المسرح التأثيرى هى مجرد قلق على الحياة..

لا أحد يبدو أنه يصدق أو يعبأ بالموت.. حتى الذى يحمل النعش على أكتافه.

الخشبة تغوص فى لحم أكتافه.. وعقله سارح فى اللحظة المقبلة وكيف يعيشها..

الموت لا يعنى أحدا.. وإنما الحياة هى التى تعنى الكل.. نكتة!..

من الذى يموت إذن؟..

الميت؟..

وحتى هذا.. لا أحد يدرى مصيره..

إن الجنازة لا تساوى إلا مقدار الدقائق القليلة التى تعطل فيها المرور وهى تعبر الشارع..

وهى عطلة تتراكم فيها العربات على الجانبين.. كل عربة تنفخ فى نفيرها فى قلق.. لتؤكد مرة أخرى أنها تتعجل الوصول إلى هدفها.. وأنها لا تفهم.. هذا الشىء الذى اسمه الموت.

ما الموت.. وما حقيقته..

ولماذا يسقط الموت من حسابنا دائما. حتى حينما نواجهه.

* * *

لأن الموت فى حقيقته حياة.

ولأنه لا يحتوى على مفاجأة..

ولأن الموت يحدث فى داخلنا فى كل لحظة حتى ونحن أحياء.. كل نقطة لعاب.. وكل دمعة.. وكل قطرة عرق.. فيها خلايا ميتة.. نشيعها إلى الخارج بدون احتفال..

ملايين الكرات الحمر تولد وتعيش وتموت.. فى دمنا.. دون أن ندرى عنها شيئا. ومثلها الكرات البيض.. وخلايا اللحم والدهن والكبد والأمعاء.. كلها خلايا قصيرة العمر تولد وتموت ويولد غيرها ويموت.. وتدفن جثثها فى الغدد أو تطرد فى الإفرازات فى هدوء وصمت.. دون أن نحس أن شيئا ما قد حدث.

مع كل شهيق وزفير.. يدخل الأكسجين.. مثل البوتاجاز إلى فرن الكبد فيحرق كمية من اللحم ويولد حرارة تطهى لنا لحما آخر جديدا نضيفه إلى أكتافنا.

هذه الحرارة هى الحياة..

ولكنها أيضا احتراق.. الموت فى صميمها.. والهلاك فى طبيعتها.

أين المفاجأة إذن وكل منا يشبه نعشا يدب على ساقين..

كل منا يحمل جثته على كتفيه فى كل لحظة..

حتى الأفكار تولد وتورق وتزدهر فى رءوسنا ثم تـذبل وتسـقط.. حتى العواطف.. تشتعل وتتوهج فى قلوبنا ثم تبرد.. حتى الشخصية كلها تحطم شرنقتها مرة بعد أخرى.. وتتحول من شكل.. إلى شكل..

إننا معنويا نموت وأدبيا نموت وماديا نموت فى كل لحظة.

وأصدق من هذا أن نقول إننا نعيش. ماديا نعيش وأدبيـا نعيش ومعنويا نعيش.. لأنه لا فرق يذكر بين الموت والحياة..

لأن الحياة هى عملية الموت.

لأن الأوراق التى تنبت من فروع الشجرة.. ثـم تـذبل وتمـوت وتسقط.. وينبت غيرها.. وغيرها.. هذه العملية الدائبة هى الشجرة..

لأن الحاضر هو جثة الماضى فى نفس الوقت.

لأن الحركة هى وجودى فى مكان ما وانعدامى من هذا المكان فى نفس اللحظة. فبهذا وحده أمضى وأتحرك.. وتمضى معى الأشياء..

لأن الحياة ليست تعادلية، ولكنها شد وجذب وصراع بين نقيضين، ومحاولة عاجزة للتوفيق بينهما فى تراكيب واهية هـى فى ذاتهـا فى حاجة للتوفيق بينها.. مرة.. ومرة ومرات.. بدون نهاية وبدون نجـاح أبدا.. وبدون الوصول إلى أى تعادلية..

الحياة ليست تعادلية بين الموت والوجود ولكنها اضطراب بيـن الاثنين وصراع يرفع أحدهما مرة ويخفضه مرة أخرى.

الحياة أزمة.. وتوتر..

ونحن نذوق الموت فى كل لحظة.. ونعيشه.. فلا نضطرب بل على العكس.. نحس بكياننا من خلال هذا الموت الذى فى داخلنا.. ونفوز بأنفسنا، وندركها، ونستمتع بها..

ولا نكتفى بهذا.. بل ندخل فى معركة مع مجتمعنا.. وندخل فى موت وحياة من نوع آخر. موت وحياة على نطاق واسع تتصارع فيه مجتمعات ونظم وتراكيب إنسانية كبيرة.

ومن خلال هذا الصراع الأكبر. نحس بأنفسنا أكثر.. وأكثر.. إنها ليست خلايا تولد وتموت فى جسد رجل واحد. ولكنها أيضا مجموعات بشرية تولد وتموت فى جسم المجتمع كله.

إنها الموت يحدث على مستويات أكبر.

الموت إذن حدث دائب مستمر.. يعترى الإنسان وهو على قدميه ويعترى المجتمعات وهى فى عنفوانها.

وهو فى نسيج الإنسان.. فى جسده.. وفى كل نبضة ينبضها قلبه مهما تدفقت بالصحة والعافية.

وبالموت تكون الحياة.. وتأخذ شكلها الذى نحسه ونحياه..

لأن ما نحسه ونحياه هو المحصلة بين القوتين معا.. الوجود والعدم وهما يتناوبان الإنسان شدا.. وجذبا..

ما السر إذن فى هذه الدهشة التى تصيبنا حينما يقع أحدنا ميتا.

ولماذا يبدو لنا هذا الحدث غريبا.. غير معقول، غير قابل للتصديق.

ولماذا نقف مشدوهين أمام الحادث نكذب عيوننا .. ونكذب حواسنا.. ونكذب عقلنا.. ثم نمضي.. وقد أسقطنا كل شيء من حسابنا.. وصرفنا النظر.. واعتبرنا ما كان.. واجبا.. ولباقة. ومجاملة.. أديناها وانتهينا منها.

لماذا لا نحمل هذا الحادث على محمل الجد..

ولماذا نرتجف من الرعب حينما نفكر فيه.. وتنخلع قلوبنا حينما نصدقه وتضطرب حياتنا حينما ندخله فى حسابنا ونضعه موضع الاعتبار.

السبب أنه الحادث الوحيد المصحوب برؤية مباشرة.. فما يحدث داخلنا من موت لا نراه.. لانرى كرات الدم وهى تولد وتموت.. لانرى الخلايا وهى تحترق.. لانرى صراع الميكروبات وهى تقتلنا ونقتلها..

وخلايانا لا ترى نفسها وهى تفنى...

كل ما يحدث فى داخلنا يحدث فى الظلام.. ونحن ننام مل جفوننا وقلوبنا تدق بانتظام وتنفسنا يتردد فى هدوء.

الموت يسترق الخطى كاللص تحت جنح الليل.. ويمشى على رءوسنا فتبيض له شعراتنا.. شعرة.. شعرة.. دون أن نحس.. لأن دبيبه وهو يمشى هو دبيب الحياة نفسها.

إن أوراق الشجرة تتساقط ولكن الشجرة تظل ماثلة للعيان دائمة الخضرة دائمة الازدهار.. تظل هكذا حتى تهب عاصفة تخلعها من جذورها وتلقى بها فى عرض الطريق..

وحينئذ فقط يبدو منظرها قاتما يبعث على التشاؤم.. تبدو فروعها معروقة عارية.. وجذورها نخرة.. وأوراقها مصفرة..

لقد انتهت.. لم تعد شجرة.. أصبحت شيئا آخر.. أصبحت خشبا.

وهذا هو ما حدث.. حينما نشاهد الإنسان وهو يسقط جثة هامدة.

إنه يبدو شيئا آخر ويبدو الحادث الذى حدث فجأة.. حادثا غريبا بلا مقدمات..

لقد انتهى الإنسان كله فجأة..

ويبدأ العقل فى التساؤل..

هل أنتهى أنا أيضا كلى فجأة كما انتهى ذلك الإنسان..
وكيف ولا شىء فى إحساسى يدل على هذه النهاية أبدا.

كيف يحدث هذا.. وأنا جياش بالرغبة.. ممتلئ بالإرادة.. بل أنا الامتلاء نفسه.

كيف يتحول الامتلاء إلى فراغ.. وفجوة.

أنا.. أنا؟!.. الذى أحتوى على الدنيا .. كيف أنتهى هكذا وأصبح شيئا تحتوى عليه الدنيا.

أنا ؟..

إن كلمة.. أنا.. كلمة كهربائية.. إنها كالضوء أرى بها كل شىء.. ولا يستطيع شىء أن يراها.. إنها أكبر من أى كلمة أخرى وأكبر من أى حقيقة.. لأن بها تكون الحقائق حقائق..

إنها فوق كل شىء وفوقى أنا أيضا لأنها ترانى وتشعر بى.. إنها مصدر الإشعاع كله.. وحيث يتمثل لى هذا المنظر المفجع الذى يلقى فيه إنسان مصرعه.. فهى فوق هذا المنظر أيضا.. لأنها تراه.. وفوق الطبيعة.. وفوق وقوانينها.. وفوق ظواهرها.

أنا أموت !..

من أنا

ومن هو الذى مات..

إنه بعض منى.. منظر من ملايين المناظر الذى تعبر خاطرى.

فكيف أموت أنا أيضا..

إن التساؤل ما يلبث أن يتحول إلى تمزق فظيع يحطم فيه المنطق نفسه بنفسه.. ويصطدم باستحالات لا حل لها..

وهكذا تبدأ المشكلة الأزلية..

لغز الموت..

إن مصدر اللغز هو هذا الموقف الذى ينتقل فيه العقل من رؤية

مباشرة للموت إلى استنتاج مباشر عن مــوته هــو أيضــا.. وهــو أبو الأشياء.. ونظامها.. وتفسيرها.. ونورها.

ولكنه يعود فيقول:

لا..

إن الذين يموتون هم الآخرون.

إن التاريخ كله لا يروى قصة واحدة عن موت الـ.. أنا..

إن الموضوعات تتغير وتتبدل وتولد وتذبل وتمــوت.. والآخــرون يموتون.

أما أنا.. هذه الـــ أنا.. لا توجد سابقة واحدة عن موتها.

أنا من مادة أخرى غير كل هذه الموضوعات.. ولهذا أمسك بهــا وأتناولها وأفهمها.. ولا أستطيع أن أمسك بنفسى وأتناولها وأفهمها.

أنا فوق متناول الجميع.. وفوق متناولى أنا أيضا.. وفوق متنــاول القوانين والظواهر..

هناك حلقة مفقودة..

وهى تفتح بابا تدخل منه الفلسفة.. ويتسلل منه الفكر.. ولكنه باب ضيق.. ضيق جدا.. يؤدى إلى سراديب أغلبها مغلقة ورحلة الفكر فى هذه السراديب مخيفة مزعجة ولكنها تثير الاهتمام.

وأى شىء يبعث الاهتمام أكثر من الحياة.. والمصير.. ومن أين.. وإلى أين.. وكيف.

عملية تهريب

الحب قصة جميلة.. الموت مؤلفها..

الحياة حرارة.. واحتراق.. الموت نسيجها.. والهلاك فى صميمها.

أجسادنا تتساقط وهى تمشى.. فى كل لحظة هناك شىء يتساقط منا..

وكلما توهجت حياتنا تآكلت فى نفس الوقت..

العدم كامن فى الوجود.. كامن فى أجسادنا.. كامن فى إحساساتنا ومشاعرنا..

الخوف.. الشك.. التردد.. القلق.. الكسل.. التراخى.. اليأس.. القنوط.. كل هذه علامات سكون فى الشعور.. كلها إحساسات عدمية تفسيرها الوحيد أن هناك فجوة فى تكويننا.. فجوة نراها بعين الشعور فنخاف ونجزع ونقلق..

فجوة نطل عليها من داخلنا وإن كنا لا نراها بعيننا الواعية..

ولا نتذكرها إلا حينما يقال لنا.. فلان مات.

مات..؟! مات ازاى؟ ده كان لسه سهران معـانا امبـارح لنص الليل.. شىء عجيب..

ونمصمص شفاهنا.. ثم ننسى كل شىء ونعود إلى حياتنا الآلية.. ولكن عيننا الداخلية تظل مطلة على هذه الفجـوة.. وبـاطننا يـظل يرتجف بهذا القلق المبهم..

الموت بالنسبة لكل منا.. أزمة.. وسؤال.. يبعث على الـدهشة والقلق.. والذعر.

ولكنه بالنسبة للكون شىء آخر.

إنه بالنسبة للكون ضرورة وفضيلة.. وخير..

الموت والحياة حينما ننظر لهما من بعيد.. وهما يعملان فى الكون يظهران وهما يخلقان الواقع.

الموت يبدو مكملا للحياة.. يبدو كالبستانى الذى يقتلع النبـاتات الفاسدة ويسوى الأرض ويحرثها ليفسح المجال للبـذور الصـغيرة الرقيقة لتطرح ثمارها..

يبدو كالرسام الذى يمحو بفرشاته خطًّا ليثبت على اللوحة خـطا جديدا أفضل منه.

يبدو خالقا فى ثوب هدام.. فهو يهدم حـائط الجسـد.. لأن خلف الحائط يوجد ماء الحياة الجارى.

حاول أن تتخيل الدنيا بلا موت.. الدنيا من أيام آدم.. والمخلوقات وهى تتراكم فيها.. ولا تموت.

الناس.. والذباب.. والضفادع.. والحشائش.. والديدان.. وهى تتراكم.. وتتراكم.. ويصعد بعضها على أكتاف بعض.. حتى تسد عين.. الشمس..

إن الحياة تبدو شيئا كالاختناق.

إن الكائن الحى يحب نفسه فقط.. ويحب اللحظة الصغيرة التى يعيشها ولهذا يكره الموت.. ولكن الموت يحب كل اللحظات ويحب الزمن.. ويحب المستقبل .. ولهذا يتساقط الناس من غرباله كالنشارة ليقوم على أشلائهم ناس آخرون أحسن منهم وهكذا دواليك.

الموت هو عملية المونتاج التى تعمل مقصها فى الشريط الوجودى كله فتقطعه إلى عدة لقطات واقعية.. كل منها له عمر محدود..

والموت يخلق واقع الأشياء الجامدة أيضا كما يخلق واقع المخلوقات الحية.

الأشياء الجامدة لها نهاية.. والعين تدركها لأن لها نهاية.. نهاية فى الطول والعرض والعمق.. ولو كانت لانهائية فى طولها وعرضها وعمقها لاختفت.. ولأصبحت عالية على الإدراك.. غير موجودة..

إن التناهى هو الذى يوجدها..

والتناهى هو الموت.

كل ما فى الكون من إنسان وحيوان ونبات وجماد إذن متناه له حدود.. الموت يأكل أطرافه.. ويقص حواشيه.. ويبرزه.. ويوجده ويخلقه فى نفس الوقت..

الموت فضيلة وخير بالنسبة للكون كله لأن به تكون الأشياء موجودة وتكون المخلوقات مضطرمة بالشعور والحياة.

ولكنه شر الرذائل بالنسبة للإنسان الفرد.. بالنسبة لك أنت.. ولى أنا.. لأنه ينفقنا كضرائب إنشاء وتعمير.. ويقدمنا قرابين على مذبح الوجود.

ونحن لا نفهم هذا النوع من القربان.. ولا نستطيع أن نفهمه لأنه قربان فظيع.. وتضحية معناها أن نموت ونهلك.

نحن نعيش فى مأساتنا الشخصية.. ونرى الموت كفجوة تفغر فاها تحت أقدامنا فنتشبث بأى شىء نجده حولنا.. ونتشبث بأمهاتنا وبزوجاتنا.. بأطفالنا.. بأصدقائنا.

نشعر بالحب والشوق والحنين إلى يد نمسك بها ونتشبث بها ونحتمى من الجرف الذى ينهار تحتنا.

ونبصر بالمرأة تمد لنا يديها وقلبها وجسدها.. وتتراقص مثل «كوبرى» عائم على نهر الفناء.. فنهرع إليها محاولين النجاة.. ونشعر بجنون اللذة والسرور والفرح ونحن بين ذراعيها.. نشعر بأننا نولد من جديد.. ونبعث.. ونهرب من المصير..

ونموت.. ولكن بعد أن نكون قد زرعنا صورتنا فى جسدها وقمنا

بتهريب جزء من وجودنا عبر هذا «الكوبرى» الجميل من اللحم والدم.. الذى مدته لنا مع ابتسامتها.

إن الحب كله قصة جميلة.. مؤلفها هو الموت نفسه.. وليس الحب فقط.. بل كل العواطف والنزوات والمخاوف والآمال وشطحات الخيال والفكر والفن والأخلاق.. كل هذه القيم العظيمة تدين للموت بوجودها.

أعطنى أى مثل أخلاقى. وأنا أكشف لك عن الموت فى مضمونه.

الشجاعة قيمتها فى أنها تتحدى الموت.

والإصرار قيمته فى أنه يواجه الموت.. وهكذا كل مثل أخلاقى.. قوته فى أنه يواجه مقاومة.. وهو ينهار.. وينهار مضمونه حينما لا تكون هناك مقاومة فى مواجهته.

الفنان والفيلسوف ورجل الدين ثلاثة يقفون على بوابة الموت..

الفيلسوف يحاول أن يجد تفسيرا..

ورجل الدين يحاول أن يجد سبيلا للاطمئنان.

والفنان يحاول أن يجد سبيلا إلى الخلود.. يحاول أن يترك مولودا غير شرعي على الباب يخلد اسمه.. قطعة موسيقية أو تمثالا أو قصة أو قصيدة.

كلنا يخلقنا الموت.. الموت المدهش.

لو لم نكن نموت لما شعرنا بالحب.. فما الحب إلا هستيريا

التشبث والتعلق بالحياة.. ومحاولة تهـريبها كالمخـدرات فى بـطون الأمهات.

وما الداعى إلى أخلاق فى مجتمع من الخالدين.. إن الأخلاق هى الخرسانة والمسلح الذى ندعم به بيوتنا المنهارة.. ونمسك به هياكلنا الفانية.. فإذا كنا من الخالدين لا نمـرض ولا نمـوت ولا نضـعف ولا يصيبنا شر فما لزوم الأخلاق.

إن كل ما هو جميل وخير وحسن فى مجتمعنا خارج مـن هـذه الفجوة.. الموت.

وكل ما هو جميل فى إنسانيتنا خارج من هذه الفجوة أيضا.

إن حياتنا غير منفصلة عن موتنا.. فكل منهما مشروط بالآخر.

والأصدق أن نقول إنه لا توجد حالتان.. حياة وموت.. ولكن حالة واحدة هى الصيرورة.. حالة متناقضة فى داخلهـا ومحتـوية علـى الاثنين معا : الحياة والموت..

حالة متحركة نابضة صائرة من حياة إلى موت ومن مـوت إلـى حياة وفى كل لحظة منها تحمل الجرثومتين معـا، جـرثومة نمـوها وجرثومة فنائها فى نفس الوقت.

وهما جرثومتان لا هدنة بينهما.. ولا تعادل وإنمـا صراع وتـوتر وتمزق وشرر متطاير مثل الشرر الذى يتطاير مـن قـطبى الـكهرباء السالب والموجب حينما يلتقيان.. وهما مثلهما أيضا.. تبعثان حرارة

ونورا.. هما العاطفة والوعى اللذان يندلعان فى عقل الانسان الـذى يعيش هذا الصراع بسالبه وموجبه..

وهو صراع يبدو فيه العنصر الموجب أقوى من السالب.. وتبـدو الحياة غلابة صاعدة منتصرة..

* * *

كلام جميل.. ولكنه مع هذا كله لا يجعل الموت جميلا فى عيوننا.

إنه يفشل حتى فى الاعتذار لنا عن عـزارئيل وأفعـاله.. حتـى ولو كانت فى صالح الكون.. فمالنا والكون.. ونحـن كون فى ذاتنـا وعزرائيل ينتهك أطهر حرماتنا، نفوسنا.. أنا .. وأنت.

إن أجمل اللحظات فى حياتى هى التى أقول فيها.. أنا فعلت.. أنا قدمت.. أنا أنجزت.. أنا اخترعت.. أنا.. أنا.

لا يوجد شىء فى وجودى.. أو وجودك.. أغلى من هـذه الـكلمة الصغيرة.. أنا.. فكيف يمكن أن أتصور أن أموت..

إنى أستطيع إحداث الموت.. أستطيع أن أقتل وأن أنتحر.. كيف يكون الموت أحد اختراعاتى.. وأكون أنا أحد ضحاياه فى نفس الوقت.

أين اللغز الحقيقى.. أهو الموت.. أم هو هذه الكلمة الصـغيرة.. أنا؟..

أنــا

أنا من الخارج لى حدود لــى سـقف
ينتهى عنده جسدى.. ولـكننى مـن
الداخل بلا سقف...
ولا قــاع...

أنا.. كلمة ظريفة.. لا يوجد أظرف منها فى الدنيا.. إنها أغنية..

إنها تدخل فى أى جملة فتجعلها جملة مفيدة مهمة.. وتدخل فى أى موضوع فتجعله موضوع الساعة.. لأنه يصبح موضوعى أنا.. وفلوسى أنا.. وحبيبى أنا.. وروحى أنا.. وقلبى أنا؟

ولكن أنا..؟.. من أنا؟

هل حاول أحدكم أن يسأل نفسه هذا السؤال..

من أنا؟..

أنا فلان.. فلان إيه.. فلان ابن فلان.. يعنى إيه.. مجرد ألفــاظ.

مجرد رموز أو إشارات تدل على حقيقتى.. طيب وإيه هى حقيقتى؟..

وهنا يبدأ اللغز.

ما هى حقيقتى؟..

إنى أحاول أن أمسك بوجودى وأكتشفه وأفحصه كما أفحص هذه المحبرة فأجد أنه وجود بلا قاع.. وجود مفتوح من الداخل على إمكانيات لا نهاية لها.. وألقى بحصاة فى هذه البئر الداخلية فلا أسمع لها صوتا.. لأنها تهوى وتهوى إلى أعماق بلا آخر..

أنا من الخارج لى حدود.. ينتهى طولى عند ١٧٠ سنتيمتر.. لى سقف ينتهى جسدى عنده.. ولكنى من الداخل بلا سقف وبلا قعر.. وإنما أعماق تؤدى إلى أعماق.. وأفكار وصور وأحاسيس ورغبات لا تنتهى إلا لتبدأ من جديد كأنها متصلة بينبوع لا نهائى.. وهى أعماق فى تغير دائم وتبدل دائم.. بعضها يطفو على السطح فيكون شخصيتى وبعضها ينتظر دوره فى الظلام..

وأنا فى الخارج أتبدل أيضا.. الواقع يكشط هذه القشرة التى تطفو خارجى فتطفو قشرة أخرى من عقلى الباطن محلها..

وكلما أمسكت بحالة من حالاتى وقلت هذا هو أنا.. ما تلبث هذه الحالة أن تفلت من أصابعى وتحل محلها حالة أخرى .. هى أنا.. أيضا..

شىء محير!!..

وأنظر حولى فى العالم.. فأجد أنى أعوم فى هذا العالم كما تعــوم البطة فى الماء.. تجدف فيه بريشها ولا تبتل وإنما ينزلق من عليهــا الماء كأنه من عنصر آخر غريب عنها..

أنا متصل بالعالم منفصل عنه فى نفس الوقت..

إنه يدخل فى تكوينى بحكم المسكن والمأكل والمشرب والاتصــال بالآخرين.. ولكنه غير ملتصق بى.. إنه يذكى شعورى ويثير اهتمامى فقط.. وبمقدار اهتمامى أظل على علاقة به فإذا انتهــى اهتمــامى نفضته تماما كما تنفض البطة الماء من ريشها حينما تصــل إلــى الشاطئ..

إنى أحتضن العالم باختيارى وأخلع عليه اهتمامى وشــخصيتى وأتبناه وأظل مصاحبا له طالما هو.. أنا.. فإذا انتهت هذه العــلاقة الأنانية.. عدت إلى نفسى..

ولكنى لا أنجو مع هذا من الابتذال.. والتردى فى هوة اليأس..

العالم يبتذلنى أحيانا فأذوب فيه بعض الوقت.. أفعل ما يــطلبه منى رئيس تحرير المجلة التى أعمل بها وأؤدى ما يطلبه منى مــدير المستشفى الذى أشتغل فيه طبيبا..

وأخضع لروتين العادة والعــرف والمجــاملات وأضــيع نفسى فى الثرثرة وأختبئ وراء المشاكل اليومية.. وأتستر خلف الناس.. وأقول وأنا مالى.. هم عاوزين منى كده.. الدنيا كلها بتعمل كده..

وفى هذه الحالات تضيع منى نفسى.. تضيع منى.. أنا.. وأصــبح

موضوعا من الموضوعات مثل الكرسى والشجرة والـكتاب.. وأفقـد الشىء البكر الذى يميزنى عن كل شىء.. ويجعل منى نسيج وحده.. يجعل منى.. أنا.. فلان الفلانى..

هذه أوقات لا أحس بها.. وإنما تبدو ممسـوحة ومشـطوبة مـن حياتى.. تبدو فترات موت..

حريتى تعذبنى.. لأنى حينما أختار.. أتقيد باختيارى.. وتتحـول حريتى إلى عبودية ومسئولية.. وهى مسئولية لا ينفع فيها إعفاء لأنها مسئولية أمام نفسى.. أمام الاختيار الذى اخترته أنا..

وليس أمامى سبيل غير أن أختار.. لابد أن أختـار كل لحـظة.. فإذا أضربت عن الاختيار.. كان إضرابى نوعا من الاختيار.. على أن أدفع ثمنه فورا..

وحبى يعذبنى لأنى أريد أن أمتلك محبوبتى وأذيبهـا فى داخلـى وأشرب شخصيتها وروحها وجسدها.. أريد أن أحولها إلـى.. أنـا.. وهذا مستحيل لأنها هى الأخرى لها.. أنا.. وذات حرة مثلى..

إن كل ما نستطيعه هو أن نتعانق وتتلامس شفاهنا.. وتتـلامس حقائقنا وأسرارنا فى لحظات مضيئة.. ثم نمضى إلى حالنا.. كل واحد مغلق على سره.

إن كل ما نملكه هو أن نفتح نـوافذنا علـى الخـارج، ولـكننا لا نستطيع أن ننقل عفشنا.. ونسكن بيتا جديدا.

إن روحنا سر.. وذواتنا قدس الأقداس..

إن الله يضع كل جنده على باب ذاتنا كما يقول طاغور.. ولا يسمح لأحد منه بالدخول فيها. لأنها حرم.. حرمها على الكل.. وخلقها حرة كالطائر الغرد..

* * *

ماذا هناك.. ماذا وراء الباب..

ماذا بداخلي..

إرادة. إرادة لا نهائية لا حد لها إلا نفسها.. إرادة حرة خالقة مبدعة.. تنبثق انبثاقا فى بداءة وفطرة.. أحسها ولا أعرفها أكابدها ولا أفهمها.. لأنها تفر منى كلما حاولت فهمها كما يفر النوم من عينى كلما حاولت أن أتعمقه وأحلله.. وربما كان السبب أنها أصيلة.. أكثر أصالة من العقل والتفكير ولا يمكن أن تكون موضوعا للعقل والتفكير.. بل العكس هو المقبول.. أن يكون العقل موضوعها وخادمها.. وسبيلها إلى بلوغ أهدافها..

أنا أريد.. والعقل يبرر لى ما أريد.. وليس العكس أبدا..

إن كل شىء خاضع للإرادة.. ثانوى بالنسبة لها..

فى لحظات إبداعي وخلقى.. فى اللحظات التى أحس فيها أنى أخلق نفسى وأخلق الأفكار والقيم وأكتشف العالم وأصنع المعقولات أحس أنى أدفع العالم كله أمامى.. أدفعه كالعربة..

وفى اللحظات التى أموت فيها وأسقط فى هوة العادة والتكرار

والتقليد والمجاملات والروتين.. وتضيع إرادتى من يدى.. أحس بأن العالم كله يدفعنى أمامه كالعربة..

أحس أن إرادة حصان فى الطريق يمكنها أن تعدل طريقى وتغيير سكتى..

أحس بأن عين جارى تجعلنى أنكمش فى ثيابى كأنها عين الله.. لا شىء فى الدنيا أكبر من الارادة..

الظروف المالية.. والبيئة والوراثة.. لا تلغى الارادة ولا تمحو الحرية أبدا.. ولكنها تؤثر فيها.. تؤثر فى الكيفية التى تعلن بها عن نفسها..

أنا والظروف نتصارع فى لحظة الفعل فقط.. ولكن كلا منا له وجوده البكر.

أنا حر وإرادتى حقيقة.. تماما كما أن الظروف موجودة وحقيقية.

ولكن ما هى الارادة؟..

لا توجد كلمة تصفها أو تشرحها.. لأنها أكبر من كل الكلمات ولأنها تحتوى على كل الكلمات وتتجاوزها.. فكل وصف يبدو حيالها ناقصا.. إنها كالشوق لا يوصف وإنما يكابد..

إنها تنطبق عليها كلمة المتصوف الصالح أبو البركات البغدادى: أظهر من كل ظاهر وأخفى من كل خفى..

إن أحسن طريق لمعرفتها هى أن تباشرها.. فهى المفتاح

السحرى الذى تفتح به الكون كله.. .

ولكن هناك أسئلة تتوارد على خاطرنا..

هل الارادة موجودة فى الزمان..

هل هى تنبض مثل القلب..

هل تنمو مثل الجسد..

هل تتعاقب مثل اللحظات.. وتنقضى مثل الحالات النفسية.

هل تسرى مثل الضوء والكهرباء وتنتقل كما تنتقل الحرارة..

وهى أسئلة تفتح علينا الباب على مشكلة أخرى هى.. الزمان..

ما هو الزمان؟..

هل هو حركة عقرب الثوانى والدقائق والساعات؟..

هل هو دقات ساعة الجامعة؟

هل هو الأرقام العامة التى تنشرها مصلحة الارصاد عن تـوقيت الأيام والليالى وساعات الظهر والمغرب والعشاء..

أم هو زمن آخر خاص يعيشه كل واحد منا فى نفسه ويضبط عليه وجوده..

إننا بهذه الأسئلة نبلغ المنطقة التى يكثر فيها الضباب وتصـعب الرؤية..

إنها تحملنا إلى تحت..

إنها تنزل بنا من الأوراق إلى الساق إلى الجذر.. إلى ما تحت الخشب واللحاء.. إلى العصارة التى تصعد فى نباتنا فتبعث فيه الحياة..

إننا ننفض يدنا من تشريح الأيدى والأرجل ونبدأ فى بحث الحركة نفسها. ونكف عن قياس قوة العضلات لنبحث فى الارادة ذاتها.. لأننا فى غرفة الموتور حيث أنبوبة الاحتراق التى تبعث كل الطاقة..

وهنا تتصادم الأفكار والنظريات والمذاهب فى الظلام..

الزمـن

إن دقات ساعة الحائط تقدم لك زمنـا مزيفا.. ابحث عن زمنك الحقيقـى فى دقات قلبك.. ونبض إحساسك..

كل شىء فى الدنيا يجرى ويلهث..

الشمس تشرق وتغرب..

والنجوم تدور فى أفلاكها..

والأرض تدور حول نفسها..

والرياح تهب فى الجهات الأربع..

والسيول تنهمر من أعلى الجبال..

والينابيع تنفجر من باطن الأرض..

والنبات والحيوان والانسان تعيش كلها فى حركة دائبة..

وذرات الجماد تهرول فى مداراتها..

وظاهرات الطبيعة كلها عبارة عن حركة.. الكهرباء حركة.. والصوت حركة.. والضوء حركة.. والحرارة حركة.. والكون كله يتمدد مثل فقاعة من الصابون وينفجر فى كل قطر من الفضاء..

المادة فى حالة انتشار وذبذبة وحركة ولهذا يقول إينشتين إن لها بعدا رابعا غير الأبعاد الثلاثة المعروفة.. هذا البعد هو الزمن.. أو الزمن الملتصق بالمكان ويسميه الزمكان.

المادة مثل حيوان له طول وعرض وسمك وعمر.. والعمر يدخل فى تركيبها.. كما يدخل فى تركيب الحيوان.. الزمن إحدى الفتلات التى يتألف منها نسيج المادة.

وهو أيضا إحدى الفتلات التى يتألف منها نسيج الكائن الحى.

* * *

ولكن ما الزمن..

هل هو دقات ساعة الجامعة.. والنتيجة المعلقة بالحائط والتقويم الفلكى بالفصول والأيام..

إننا مازلنا نذكر كلمات المراقب ونحن نؤدى الامتحان فى آخر كل سنة..

باقى على الزمن نصف ساعة..

نذكر الرجفة التى كنا نحس بها ونحن ننظر إلى ورقة الاجابة

وإلى ورقة الأسئلة.. وإلى الساعة فى يد المراقب.. وإلى شفتيه وهما تنطقان..

باقى على الزمن نصف ساعة..

كأنه ينطق حكما بالاعدام.. أو حكما بالافراج..

كان النصف ساعة عند بعضنا قصيرا جدا.. أقصر من نصف دقيقة.. لأن ورقة الاجابة ما زالت بيضاء أمامه.. ولأنه ما زال يبحث.. ويهرش فى رأسه..

وكان عند بعضنا الآخر طويلا مملا.. أطول من نصف يوم.. لأنه قد انتهى من الاجابة.

كانت الساعة فى يد المراقب تشير إلى زمن واحد.. ولكن كلا منا كان له زمن خاص به..

كان معيار الدقائق عند كل منا يختلف عن الآخر..

وهذا هو مفتاح اللغز..

* * *

إن الزمن ليس شيئا منعزلا عنا مثل الشجرة والمحبرة والكتاب.. ليس زمبلكا تحتويه ساعة اليد.. ولكنه شىء يلابسنا

لكل منا زمن خاص به.

عواطفنا واهتماماتنا هى الساعة الحقيقية التى تضبط الزمن وتطيله أو تقصره.

أفراحنا تجعل ساعاتنا لحظات.

وآلامنا تجعل لحظاتنا طويلة مريرة ثقيلة مثل السنين وأطول.

إحساسنا بالسرعة والبطء ليس مصدره ساعة الحائط ولكن مصدره الحقيقى الشعور فى داخلنا..

إن ساعة الحائط تقدم لنا زمنا مزيفا.. ومثلها التقويم الفلكى الذى يقسم حياتنا إلى أيام وشهور وفصول.

والتاريخ الذى يقسم أعمارنا إلى ماض وحاضر ومستقبل. لأن حياتنا غير قابلة للقسمة.. ولأن الزمن فى داخلنا غير قابل للقسمة أيضا..

إن حياتنا لحظة طويلة مستمرة يصاحبها إحساس مستمر بالحضور ونحن نتعرف على الماضى من خلال هذا الحاضر.. فحينما نعيش فى إحساس بالتذكر نسميه ماضيا.. وحينما نعيش فى إحساس بالتوقع نسميه مستقبلا.. ولكن كل هذه الاحساسات هى حاضر..

والفواصل بين الماضى والحاضر والمستقبل فواصل وهمية لأن اللحظات الثلاث يتداخل بعضها فى بعض كما يتداخل الليل والنهار عند الأفق..

والذى يقوم بتعيين اللحظة فى الشعور هو الانتباه.

الانتباه هو الذى يضع خطا تحت بعض مشاعرنا وإحساساتنا فيخيل لنا أننا وقفنا لحظة والحقيقة أنه لا وقوف أبدا.. وإنما نحن نعيش فى حالة تدفق داخلى مستمر أبدا ودائما..

والزمن الخارجى.. زمن الساعات والمنبهات زمن كاذب خداع لأنه يساوى بين اللحظات ويجعلها مجرد أرقام على مينا..

الساعة واحدة.. الساعة اتنين.. الساعة تلاتة.. مجرد حركة من العقرب.. وانتقال بضعة سنتيمترات على المينا.. إنه ليس زمانا ولكنه أوضاع مختلفة فى المكان.. أما الزمن الحقيقى فهو داخلنا.. وهو اضطراب دائم لا تتساوى فيه لحظة بأخرى.. لحظة صغيرة.. ولحظة كبيرة.. ولحظة تافهة.

وهو غير قابل للتكرار.. لأن كل لحظة تحتوى على الماضى كله ومعه علاوة من الحاضر.. وفى كل لحظة تضاف علاوة جديدة من التجربة والحياة فلا تعود الحياة قابلة لأى تكرار.. وإنما هى تعلو على الدوام مثل نهر جار يزداد فيه الماء بين لحظة وأخرى.. ولا يتشابه فيه الماء فى لحظتين متتاليتين.

إن العالم داخلنا يختلف كثيرا عن العالم خارجنا.

إن العالم خارجنا متعدد منقسم إلى أجزاء منفصلة متجاورة فى المكان.. يمكن أن نشاهد فيه وحدات متكررة..

والعالم داخلنا شىء آخر بالمرة..

إنه تدفق لا تتشابه فيه لحظة بأخرى ولا يتكرر فيه إحساس واحد مرتين..

ولا تتجاور لحظاته وإنما تتابع.. وتتلاحق.. وتتداخل فى وحدة غير قابلة للقسمة هى حياتنا..

وبهذا يكون هناك زمانان..

زمن نراه من الخارج على هيئة شروق وغـروب وعصر وظهـر.. وساعات ودقائق..

وزمن آخر نشعر به من الداخل على شكل تدفق يتصف بـالدوام والاستمرار والاتصال..

ونحن نرى الزمن الخارجى بالعقل ونـدركه بـالتحليل والقيـاس والحساب ونعبر عنه بواسطة الأرقام..

وندرك الزمن الداخلى مباشرة وبدون واسطة.. على شكل مكاشفة داخلية لكياننا..

لذلك نقول عن الزمن الداخلى إنه الزمن الحقيقى لأن الحقيقـة تطالعنا فيه عارية بدون وساطة وبدون رموز..

وهذا النوع من الاحساس يشبه إحساسنا بالحركة.. حينما نحرك ذراعنا فنحس أننا نحركها إلى فوق بدون حاجة إلى أن نراها.. لأننا نحس بهذه الحركة من الداخل مباشرة بدون وساطة الرؤية..

بينما يحتاج الذى يشاهدنا من الخارج أن يرى حركات ذراعنـا بعينيه ويتبعها ويحللها بعقله ليقول إننا نحرك ذراعنا إلى فوق..

ومعرفتنا نحن أرقى من معرفته لأننا نعاين الحقيقة مباشرة.

وبهذه المعرفة اكتشفنا الزمن.. زمننا الحقيقى.

ولكننا لا نعيش حياتنا كلها فى الزمن الحقيقى لأننـا لا نعيش فى

نفوسنا كل الوقت.. وإنما نعيش فى مجتمع.. نخرج ونختلط بالناس ونتبادل المنفعة ونتعامل ونتكلم ونأخذ ونعطى..

ولهذا لا نجد مفرا من الخضوع للزمن الآخر.. زمن الساعات.. فنتقيد بالمواعيد ونرتبط بالأمكنة..

ونبحث عن الأشياء المشتركة بيننا لنتفاهم.. وفى أثناء بحثنا عن الأشياء المشتركة تضيع منا الأشياء الأصيلة.

العرف والتقاليد والأفكار الجاهزة تطمس الأشياء المبتكرة فينا وتطمس الذات العميقة التى تحتوى على سرنا وحقيقتنا..

ونمضى فى زحام الناس وقد لبسنا لهم نفسا مستعارة من التقاليد والعادات لنعجبهم..

وتتكون عندنا بمضى الزمن ذات اجتماعية تعيش بأفكار جاهزة وعادات وراثية ورغبات عامة لا شخصية..

وهذه الذات سطحية ثرثارة تقضى وقتها فى التعازى والتهانى والمجاملات والمعايدات والسخافات وتنفق حياتها فى علاقات سطحية تشبه المواصلات المادية التى توصل من الباب إلى الباب ولا توصل من القلب إلى القلب.

وهذه الذات التافهة هى غير الذات العميقة التى نغوص إليها فى ساعات وحدتنا ونكتشف فيها أنفسنا ونتعرف على وجوهنا الحقيقية..

إنها ذات جامدة مثل الجسد تحكمها الغرائز والضرورات الاجتماعية..

وهى تشبه المرحاض النفسانى نفرز فيه كسلنا وضيقنا ومللنا ونقتل فيه وقتنا بانشغالات رخيصة تافهة مثل قزقزة اللب ولعب الطاولة.. ونحن نتأرجح فى حياتنا بين هذه الذات السطحية وبين الذات العميقة.. نهبط مرة ونعلو مرة.. نعيش فى زمن الساعات لفترة طويلة من يومنا فى وظائف وأعمال آلية روتينية.. ونعيش فى لحظات قليلة متألقة فى داخلنا فى زمننا الحقيقى الجياش فنهتز بالنشوة ونشرق بالسعادة ونرتجف بالقلق ونمتلىء بالفضول واللذة ونعرف نفوسنا على حقيقتها وبكارتها..

ونحن نكتشف هذه النفوس البكر فى مغامرات قليلة..

نكتشفها لأول مرة فى مغامرة الحب حينما نعثر على المرأة التى تهز وجودنا.. وتخترقنا.. وتخترق عادتنا وتفكيرنا وحياتنا وتقلبها رأسا على عقب.. فتبدو كأنها حياة جديدة عجيبة..

ونكتشفها لثانى مرة فى مغامرة الفن.. فى لحظة الالهام التى ينفتح فيها شعورنا على إدراك جديد وتصوير جديد للدنيا.. فنكتب أو نغنى أو نرسم أو نقول شعرا..

ونكتشفها لثالث مرة فى مغامرة التأمل وفى الشعور العميق بالتدين.. فى لحظة الجلاء الفكرى والصوفى التى نضع يدنا فيها على حقيقة جديدة فينا أو فى الناس حولنا أو فى الدنيا..

ونكتشفها لرابع مرة فى المعمل.. فى لحظة الاختراع التى نعثر فيها على سر من أسرار الطبيعة يبهرنا ويدهشنا. ويصدمنا.

كل هذه الاكتشافات تخرجنا من الزمن المبتذل المتـكرر.. زمـن الساعات.. وتنزل بنا إلى أعماقنا.. إلى زمننا الحقيقى حيث كل شىء جديد مبتكر.. مدهش.. جميل.. باعث لأقصى اللذة والفضول..

الحب

الشهوة تكشف لك عن نوعك عن
ذكورتك .. والحب يكشف لك عن
نفسك .. عن ذاتك .. والملل من
الاثنين هو الإشعار الخفى الذى ياخذ
بيدك إلى محبوبك الحقيقى

أحبك..

كلمة لذيذة تصيبنا بالخدر والدوار..

كل شيء فينا يذوب ويتفتت حتى اللغة نفسها تذوب والزمن يذوب والمكان يذوب والعقل يذوب والقلب يذوب.. ونحن ننطقها..

* * *

اللغة تتعطل فى لحظة الحب ويحل محلها سكوت ناطق معبر. والزمان والمكان يتلاشيان فى غيبوبة صاحية تكف فيها اللحظات عن التداعي وتنصهر فى إحساس عميق بالنشوة والنصر والفرح..

قد تكون هذه النشوة لحظة واحدة.. ولكن هذه اللحظة تصبح كالأبد..

الحب يؤبدها فتستمر ماثلة أمام الشعور.. تستمر فى المستقبل لسنوات طويلة تلاحق صاحبها وقد ألقت ظلا طويلا على حياته.. وامتزجت بصحوه ونومه وأحلامه وهذيانه.. والتصقت به من داخله فأصبح من المستحيل عليه أن ينفضها مع ثرثرة كل يوم ومشاغله وتفاهاته..

أصبحت بعض نفسه.. تحيا بحياته.. وتموت بمماته.

* * *

فى لحظة الحب ينفتح شىء فينا.. ليس الجسد.. بل ما هو أكثر.. بوابة الواقع كلها تنفتح على مصراعيها فنتلامس الحقائق والمعانى الجميلة والمشاعر التى يحتوى عليها الحبيبان.

ويحدث الانسجام من هذا التماس بين الأفكار والمعانى والأحاسيس الرقيقة..

ويخيل للاثنين فى لحظة أنهما واحد.. ويسقط آخر قناع من أقنعة الواقع.. فتذوب الأنانية التى تفصلهما.. ويصبحان مصلحة واحدة وفكرة واحدة.

ولكنها لحظة خاطفة لأن الواقع الصفيق ينسدل من جديد بين الحبيبين فيعود الهم يعزلهما الواحد عن الآخر.. هم الزمن والساعة التى أزفت والميعاد الذى انتهى والوقت الذى حتم على كل منهما أن

يعود إلى عمله.. وهم المكان الذى يعزلهما كل واحد فى بلد.. وهم الجسد الذى يحوى كلا منهما فى كيان مستقل من اللحم والدم.. وهم المجتمع الذى يحتوى على الاثنين ويطالبهما بالتزامات وواجبات.. وهم الماضى الذى يدخل كشريك ثقيل الظل فى كل لحظة..

إننا لا نعيش وحدنا.. بل هناك الآخرون.. وكلهم ينازعون حريتنا ولقمتنا وحياتنا..

وفى هذا الزحام نضيع ويطمس الواقع على أحلامنا ويأخذنا معه فى دوامة من التكرار السخيف من الأكل والشرب والنوم.. لا نفيق منها إلا لنغيب فيها من جديد وتمضى حياتنا فى روتين ممل لا نلتقى فيه بأنفسنا أبدا.. ولا نذوق الحب ولا نعرفه.

وقد نتزوج ونعيش حياة بليدة هادئة.. نلتقى فيها بزوجاتنا كما نلتقى بدفاتر الحضور فى الديوان.. نوقع عليها كل ليلة لنثبت حضورنا فى الميعاد.. ونعيش حياتنا الجنسية بدون وجدان.. وتظل الزوجة فى نظرنا مجرد أنثى لقضاء الحاجة.. يمكن أن تحل محلها الخادمة أو أية امرأة بدون أن نحس أن شيئا ما ناقص أو مفقود.

* * *

إن الشهوة شىء غير الحب..

إنها أقل من الحب بكثير.. فهى رغبة النوع وليست رغبة الفرد..

إنها علاقة بين طبيعتين وليست علاقة بين شخصين.. علاقة بين الذكورة والأنوثة..

والفرد لا يكشف فيها نفسه ولكنه يكشف نوعه وذكورته..

والحب يحتوى على الشهوة ولكن الشهوة لا تحتوى عليه..

بالحب لا تكشف فقط أنك ذكر.. ولكنك تكشف أيضا أنـك فـلان وأنك اخترت فلانة بالذات ولا يمكن أن تستبدلها بأخرى..

إن كلمة «أحبك» هى أعمق وأجمل كلمة فى حياة الـرجل لأنهـا ليست مجرد كلمة وإنما هى نافذة يطل منها على حقيقته وسره..

والحياة الخالية من الحب حياة باردة موحشة سخيفة خالية مـن الحماس والطعم والبهجة.. تنساب فيها الرغبات مضعضعة ميتة من الملل والضجر والفراغ..

الحياة بلا حب.. غربة..

والشهوة لا تسعفنا ولا تطفئ عطشنا ولا تعوضنا عن الحب..

إنها وسيلة للهروب فقط نبدد بها نشاطنا ونتخلص منه.

إنها مثل الخمر والقمار والمخدرات وسـيلة لـلإغماء والإعيـاء والبلادة..

* * *

والشىء الوحيد الذى يستطيع أن يحل محل الحب هو الفن.. لأنه ينفذ إلى القلب مثله.. ويكشف مثله عن ذاتنا العميقة.. ويوصلنا إلى اللحظات الأبدية المليئة.. ويطلعنا على كنوزنا وأسرارنا..

وما يبدعه الانسان من فنون خالدة يدل على أنه يحتوى على بذرة الخلود فى داخله.

وما يعيشه من لحظات أبدية يدل على أنه يحتوى على الأبدية فى قلبه.

* * *

والحب الذى هو أعمق من كل حب لا يفجره فى القلب إلا التصوف والشعور الدينى.. لأن الدين هو الذى يعيد الانسان إلى النبع الذى صدر منه ويأخذ بالانسان الساقط فى الزمان والمكان ليرفعه إلى سماوات الأبدية ولا يرفعه إلى هذه السماوات إلا الحب.. منتهى الحب الذى يفنى به العابد عن نفسه وعن الدنيا شوقا إلى خالقه.

وما حب الانسان للمرأة.. وما حب الانسان للفن.. وما حب الانسان للجمال.. إلا خطوات الدليل الخفى الذى يقودنا إلى الله.. إلى المحبوب الوحيد الذى يستحق الحب.. إنها محطات سفر إلى المحطة النهائية.. محطة الوصول..

مرة بعد مرة يكتشف الانسان أن موضوعات حبه لا تملك وجودا حقيقيا.. فالوردة تذبل والشمس تغرب والمرأة تشيخ والجديد فى الفن يبلى.

وما رآه فى المرأة جمالا يكشف أنها لا تملكه وأنه يزايلها بالشيخوخة.. إنه لم يكن جمالها.. لقد كان وديعة أودعت عندها ثم استردها صاحبها..

وتبرد الشهوة..

وتفتر العاطفة..

ويتجه الرجل بحبه إلى امرأة أخرى لتتجدد الخيبة ويتجدد الملل ويتجدد الضجر..

لا.. إن حبه أكبر من أن تستوعبه ذراعان.

إن حبه يعبر به الغايات المحدودة ويتجاوزها إلى قيم الفن والجمال والخير والعدالة والحقيقة.

وهو على عتبة هذه المجردات يكتشف أنه يريد الله بكل حبه فهو الواحد الذى تتجسد فيه كل هذه القيم اللانهائية.

هو اللامحدود فى مقابل المحدود.

ها هو أخيرا يجد الجواب على السؤال اللغز الذى طالما حيره.

لماذا خلقت.. لماذا وجدت فى هذه الدنيا..

هو الآن يعرف لماذا خلق.

ليصل إلى حقيقة نفسه. وليدرك إلهه.

وما أرض الواقع إلا المزرعة التى يلقى فيها بإمكانياته لتورق ولتثمر وتتحقق.. تلك الامكانيات الباطنة فيها بطون جنين القمح فى بذرة القمح.

وهو يرى نفسه كإرادة هائلة تتخبط فى سروال ضيق من الجلد

واللحم لا يسمح له إلا بالسير البطىء خطوة خطوة والحياة بالقسط لحظة بلحظة.. وفى كل خطوة من خطواته وفى كل لحظة من لحظاته يترك بأعماله أثرا يدل عليه.

وهو كل يوم يملأ ورقة الامتحان ويجيب عن الأسئلة الأزلية : من أنت؟.

ماذا تريد أن تقول؟.

ماذا تريد أن تفعل؟.

ماذا تخفى فى قلبك؟.

ليكشف عن مكنونه ويحقق ذاته ويقوده حبه لنفسه وحبه للمرأة وحبه للجاه والسلطان إلى يأس بعد يأس وملل بعد ملل وإحباط بعد إحباط حتى يشرق فيه حب الحق ليدله على الطريق.. إلى الواحد الأحد الذى تجتمع فيه كل الكمالات.

ويزداد حبه عمقا ليصبح عبادة وصلاة.. وهو يصعد فى طريق العودة إلى منبع الأنوار..

وهو الآن يشعر أنه وجد نفسه حقا وعرف إلهه وعرف هدفه وعرف طريقه.

وهو يدرك أن كل ما عاناه من عذاب وألم وإحباط ويأس لم يذهب عبثا.. فقد كانت كل تلك الآلام هى المؤشرات التى كشفت له طريقه ودلته على حقيقته.. كانت بوصلته ودليله فى بحر الظلمات.

ومن أجل هذا خلق الله الحياة..

إن الانسان معجزة المتناقضات.

إنه فان ويحتوى على خالد.

وميت ويشتمل على حى.

وعبد ويحتضن قلبا حرا.

وزمنى ويحتوى على الأبدية.

وحبه وفنه وتفكيره وصحته ومرضه وجسده وتشريحه تدل كلها على هذا التركيب المتناقض.

الدنيا كلها تقيده وجسده يقيده مثل الجاكتة الجبس. ومع ذلك لاتمنعه هذه القيود من أن يضمر فى نفسه شيئا.. وأن يفرض هذا الشىء على ظروفه.

فهو يصهر الحديد ويسوى الجبال بالأرض ويشق الأنفاق ويطلق قذيفة من عدة أطنان إلى القمر.. كل هذا وهو جسم صغير هلامى من اللحم والدم..

وهو يرقد مريضا مشلولا يائسا.. فإذا اجتمع بزوجته أنجب طفلا يرقص من الصحة والعافية..

أين كانت هذه الصحة مختفية فى المرض..

وهو يبدو ضعيفا قليل الحيلة.. تقتله رصاصة بمليم.. تماما مثل

الرصاصة التى تقتل الكلب.. ولكنه مع هذا يستيطع أن يطلق من فمه قبل أن يموت صيحة يهدم بها نظاما بأسره..

من أين يخرج صوته.. وينساب تفكيره.. وينصب شعوره.. وتتدفق قواه غير المحدودة..

إن أعضاءه تبدو فى التشريح من مادة تقبـل الـوزن والقيـاس.. وتخضع للزمن..

ولكن شعوره يكشف عن مادة أخرى وزمن أخر يعيش فيـه غيـر زمن الساعات والدقائق.. زمن حر يقصر ويطول حسب إرادته..

وتعمق هذا الشعور فى لحظات الحب والالهام والتصوف.. يكشف عن حقيقة أغرب..

إن هناك أفقا ثالثا فى داخله..

أفقا غير زمنى.. لحظاته أبدية مليئة.. لا تنقضى مثـل اللحـظات وإنما تظل شاخصة فى الشعور مالئة للوجدان..

ماذا تكون تلك اللحظات..

أتكون هى الثقوب التى تطل على سره..

وماذا يكون سره الخافى تحتها..

أهو الروح؟!!..

وما الروح؟!!..

إنها الحرية..

الحرية جوهر الانسان وروحه.. ومن خلال محاولتنا لفهم الحرية سوف نقترب من فهم الروح..

الخيط

القشة فى البحر يحركها التيار
والغصن على الشجرة تحركه الريح
والإنسان وحده .. هو الذى
تحركه إرادته..

أجمل ما فى الدنيا أنها واضحة.. تغمرها الشمس.. كل شىء فيها يمكنك أن تراه وتسمعه وتزنه وتقيسه وتتذوقه وتحلله وتستنتجه..

كل ما يحدث فيها له سبب.. وإذا عرفت سببه استطعت إحداثه.. كل شىء يجرى بنظام محكم من الأسباب والنتائج.. وإذا كان لديك ورقة وقلم فإنك تستطيع أن تحسب بالضبط متى تشرق الشمس ومتى تغرب.. لأنها تتحرك حسب قانون..

وكل شىء فى الدنيا يتحرك حسب قانون..

إلا الانسان.. فإنه يشعر أنه يمشى على كيفه.

الانسان وحده هو الحر المتمرد الثائر على طبيعته وظروفه ولهذا

يصطدم بالعالم ويصارعه.. ويستحيل فى أية لحظة أن تتنبأ بمصيره..

إن ما يحدث داخل الانسان وفى قلبه لا يخضع لقانون.. لا توجد هذه الحلقات المترابطة من الأسباب والنتائج فى داخل نفوسنا.

إننا نرغب ونتحمس.. ونعمل ولكن هذه السلسلة من الرغبة والحماس والعمل لا تتبع الوحدة الأخرى حتما.. وإنما يظل الانسان قادرا على التملص فى أية لحظة.. فإذا تراءى له أن يصرف النظر.. فإن رغبته تموت وحماسه يبرد ولا يتسلسل إلى غايته..

والسبب؟..

لا يوجد سبب..

إنه لم يعد يريد..

ولماذا لم يعد يريد؟..

كده..

هو ببساطة لم يعد يريد..

إن مجرد إرادته سبب.. فى غير حاجة إلى سبب..

وهذه الحرية.. وهذا التملص من الـ .. لابد.. واللازم.. والضرورى.. لا يوجد فى أى مكان فى الدنيا إلا فى الانسان.. إنه وحده الذى يخلق نفسه بنفسه.. ويولد كل يوم ميلادا جديدا.. ويتطور ويتكون.. وتتغير شخصيته وتدخل عليها التعديلات والتبديلات..

إن إرادته تدخل على كل لحظة فتعدلها وتخل بأى تعاقد طالما أنها أرادت هذا الاخلال..

ولهذا يستحيل التنبؤ.. لأن لكل لحظة تبدو جديدة غير متعاقدة بسابقتها.

لا شيء يحول بين الانسان وبين أن يضمر شيئا فى نفسه..

إنه المخلوق الوحيد الذى يملك ناصية أحلامه..

* * *

ولكن هذه الحرية البكر الطليقة فى الداخل ماتلبث أن تصطدم بالعالم حينما تحتك به لأول مرة فى لحظة الفعل:

إن رغبتنا تظل حرة طالما هى فى الضمير والنية..

نستطيع أن نرغب أى رغبة.. ونحلم أى حلم.. ونتمنى أية أمنية.. ولكن المأساة تبدأ فى لحظة التنفيذ حينما تحاول رغباتنا أن تحقق نفسها فى الواقع.. فتصطدم بالقيود.. وأول قيد نصطدم به هو الجسد.. جسدنا نفسه الذى يحيط بنا مثل الجاكتة الجبس.. ويحاصرنا بالضرورات والحاجات ويطالبنا بالطعام والشراب ليعيش ويستمر ولا نجد مهربا من تلبية هذه المطالب.. فنجرى خلف اللقمة ونلهث خلف الوظيفة ونضيع فى صراع التكسب ونفقد بعض حريتنا..

وليس أمامنا حل غير هذا فرغباتنا لا تستطيع أن تعلن عن نفسها بدون جسد..

وجسدنا هو أداة حريتنا.. وإن كان يقيد هـذه الحـرية فى نفس الوقت..

وليس جسدنا وحده بل أجساد الآخرين أيضا أدواتنـا.. فنحـن ننتفع بما يصنعه العامل وما يزرعه الفلاح وما يختـرعه المختـرع وما يكتبه الكاتب وكل هذه ثمار أجساد الآخرين وحرياتهم..

إن المجتمع أداة هائلة موضوعة فى خدمتنا بما فيه مـن بـريد ومواصلات ونور ومياه وصناعات وعلوم ومعارف.

وحينما يركب أحدنا قطارا فإنه يركب فى نفس الوقت على حـرية جاهزة أعدها له آلاف العمال والمخترعين والمهنـدسين فى سـنين تاريخية طويلة.. وهو يدفع فى مقابل هذا الكسب ضريبة من حريته.

وليس المجتمع وحده هو الذى يتقاضاه ضرائب.. ولـكن الـكون كله.. جاذبية الأرض.. وضغط الهواء.. ومياه المحيـطات والغـابات بحيواناتها وطيورها والسماء بكواكبها.. كلها تحاصره وتحاصر حريته وتطالبه بنوع من الوفاق معها.

وهو بالوفاق يربح حريته دائما..

بالوفاق مع العالم يمتطيه كما يمتطى الجواد..

فهو حينما يفطن إلى اتجاه الريح.. ويضع شراعـه فى مـواجهته يمتطى الريح ويسخره لخدمته.

وحينما يفطن إلى أن الخشب أخف من الماء.. ويصنع مركبا من الخشب.. يمتطى الماء.. وبالمثل حينما يفطن إلى نفع الناس وييسير

فى اتجاههم.. يكسب الناس ويكسب معونتهم..

إن المجتمع يضغط على الفرد وعلى حريته.. ولكن العقل يستطيع دائما أن يقلب هذا الضغط إلى مصلحة ومنفعة وحرية.. بأن يكتشف ببصيرته القوانين التى تربط الأشياء بعضها ببعض.

* * *

إن الانسان يعيش مضطربا بين عالمين.. عالم رغباته ونزواته وكلها حرة طائشة بلا حدود.. وعالم المادة حوله وهى جامدة محدودة مغلولة فى القوانين..

وسبيله الوحيدة هى معرفة هذه القوانين.

حريته لا تستطيع أن تشق طريقها بدون العلم.. إنها بدون العلم.. تكون مجرد رغبة مجنونة فى داخله.. مجرد نية.. وحلم وأمل سجين.

مجرد حرية وجودية تصلح مادة لقصة أو قصيدة أو أغنية أو تمثال.. أو مغامرة.. أو جريمة قتل.. ولكنها لا تصلح لكسب حقيقى واقعى.

إن الفرق بين العبودية والحرية هو خيط رفيع.. خيط رفيع يرقص عليه الانسان.. ويتأرجح.

إذا سقط فى داخل نفسه ضاع فى أحلام اليقظة والرؤيا والأمانى.

وإذا سقط فى العالم ضاع فى دوامة الزمن الآلى.. وجرفه الروتين والعرف والتقاليد.. وابتلعه المجتمع فى جوفه.

وإذا فتح عينيه ونظر إلى العالم حوله فـإنه يسـتطيع النجـاة بحريته. ويستطيع أن يقفز على الحبل خطوات واسعة إلى الأمام..

إن طريقه ضيقة محفوفة بالمخاطر.. والموت يتـرصده مـن كل جانب.

إن عليه أن يدرس الواقع حوله بما فيه من منخفضات ومرتفعات ومطبات.. ويكتشف مافيه من قوى.. ويتعرف الطريق إلـى قيـادتها والاستفادة منها..

إن الخيط الذى يسير عليه هو خيط ضيق من الواقع.. يحف بـه العالم من ناحية.. وتحف به رغباته الطائشة من ناحية أخرى..

ولو دخل فى نفسه ولاذ برغباته وأحلامه وانطوى على ذاته فـإنه يموت كما تموت الوردة التى تنفصل عن شجرتها.. وتستعبده شهوته وتسجنه غرائزه..

وإذا ذاب فى المجتمع وخضع للناس خضوع الشاة.. فإنه يمـوت ويفقد شخصيته..

وحبل النجاة هو ذلك الخيط الرفيع.. حيث يحدث التصادم بيـن نفسه والعالم.. بين داخله وخارجه.. وحيث تلتحم رغباته بـالدنيا.. مائة مرة كل يوم..

حبل النجاة أن يكون ذاتيا موضوعيا فى نفس الـوقت. أن تـكون عينه مفتوحة على داخله.. واعية لما يجرى حوله.. وإن يتدفق نشاطه من هذه البطارية ذات القطبين على الدوام.

بهذا وحده يفوز بنفسه «ويفوز بالعالم» ويصبح انسانا حرا.

* * *

ولكن هل يفوز بحريته بحق وبلا حدود.. ألا توجد سلطة عليه غير ظروفه..

هل يستطيع أن يقول إنه مخير وإنه لا توجد قوة أعلى منه ترسم له مصيره وقدره.

أم أن حريته فى غايتها هى حرية بشرية محدودة نسبية.

وأين يكون مكاننا من المشكلة الأزلية.. بين المخير.. والمسير..

مسيّر أم مخيّر

الإنسـان مخير فيما يعلم ..
مسير فيما لا يعلم

سؤال شائك محير.

هل أنا مخير أم مسير؟

شعورى يقول فى كل لحظة إنى حر.

وواقعى يكشف لى فى كل لحظة ألف لون ولون من ألوان الجبـر والقهر.

أين أنا فى هذه المشكلة؟.

هل أنا الذى أختار حياتى؟.

أم أن حياتى هى التى تختار لى؟.

تعودت دائما كلما تناولت هذه المشكلة فى مقال أن أختار جـانب الحرية.. وكانت خطابات القراء تنهال على فى كل مرة فى سـيل مـن الاحتجاجات.

ولهذا فكرت أن أدخل إلى الموضوع هذه المرة بطريقة جدلية.. وأن أجعله فى صورة حوار سقراطى فأبدأ بالإشكال كما يتصوره القراء فى خطاباتهم وتساؤلاتهم ثم أتخذ من تساؤلاتهم مدخلا إلى الموضوع لأكون أقرب ما يمكن إلى عقل القارئ العام وتصوراته.

* * *

يقول القارئ أحمد ناجى شرف الدين تعليقا على مقالى فى خطاب طويل:

.. ستة آلاف يوم عشتها ولا أدرى لم أعيش.. وإلى أين أسير.

ثلاثة وعشرون عاما عشتها وأنا أمثل رواية الأبدية.. صحو.. منام.. شرب.. طعام... صمت.. كلام.. وداد وخصام والأيام تكر.. والسنون تمر.. والعمر يمضى دون أن أعرف من أنا.. ولماذا أتيت.. وإلى أين أسير..

إنى أجرى وراء المستقبل.. وأمنى النفس بالآمال.. ففى المستقبل أبلغ آمالى.. وفيه أصلح نفسى.. وفيه أنيب إلى ربى.. وفيه أكتب تلك المعانى التى طالما جاشت بها نفسى.. ولكن المستقبل لا يأتى أبدا.. وحينما يأتى يصير حاضرا وأبدأ فى التفتيش عن مستقبل آخر.

حينما كنت فى الابتدائية كنت أتمنى أن أصبح تلميذا فى الثانوية أرتدى البنطلون الطويل وأصفف شعرى وأحتفظ بقطع الطباشير الميرى لألقيها على أطفال مدرسة الروضة التى تجاور مدرستنا كما كان يفعل طلبة المدرسة الثانوية المجاورة.. ويوم وصلت إلى

هذا الأمل هان على وذهب بهاؤه وانطفأت روعته وبدأت أنظر إلى مستقبل آخر أصبحت أتمنى أن أكون موظفا فى الحكومة مثل سيد أفندى الذى يسكن عند خالى وأتأبط الجريدة اليومية وأناقش فى السياسة الدولية وأجلس واضعا رجلا على رجل وألعب الطاولة.. وقد كان.. إذ ما كادت سنوات أربع تمر حتى كنت موظفا بالحكومة.. وذقت تلك المرارة التى يشعر بها الموظف والتى كان يخفيها سيد أفندي تحت جاكتته وابتسامته المفتعلة..

وهان على الأمر مرة أخرى وذهب بهاؤه وتغير حالى بانتقالى من عالمى الساذج إلى دنيا الوظيفة بما فيها من تملق ونفاق وكذب.

وجاء أول الشهر لأقبض أول مرتب.. سبعة جنيهات.. وكنت حين ذاك فى أسيوط على بعد مئات الأميال من بلدى.. وبدأت أشعر بضيق الحياة.. وتبددت آمالى..

لم أتمكن من الجلوس على مقهى.. ولم أتمكن من تهيئة وقت للمذاكرة.. وأصبح التحاقى بالجامعة استحالة..

وضاقت حرياتى حتى كادت تنعدم ولم يبق منها إلا حرية الحصول على خبز اليوم أتبلغ به لأعيش يوما آخر.

أين الحرية التى تتشدق بها وتملأ بها مقالاتك.

هل أنا حر.. وكيف.. وأنا لا أكاد أملك إلا الكفاف ولا أصلح إلا لمشوار واحد من الديوان إلى البيت ومن البيت إلى الديوان.

كيف أتزوج وكيف أعيش وكيف استمر فى تعليمى وكيف أحفظ

صحتى.. وكيف أوفر كل هذه الحريات وليس لدى إمكانيات.

إنى لا أملك إلا حرية واحدة هى حرية قتل نفسى إذا كنت تـظن أن هذه حرية.

* * *

ويكتب سمير زكى سوريال بحقوق القاهرة قائلا:

إذا كنا أحرارا فما معنى القانون والأخلاق والأديان والمدنية.

إن كل هذه الأشياء قيود على حرياتنا.

إن القانون يمنعنى من أشياء.

والأخلاق تحرم على أشياء أخرى.

والأديان تخيفنى من أشياء ثـالثة وتقيـدنى بضـوابط وأوامـر ومناهى.

والمدنية تربطنى بعجلة الأسرة والبيت والمصنع والآلة.. وتضبطنى كالساعة على مواعيد أنام فيها وأصحو.

إن الحياة حولنا قيود فى قيود.

أين الحرية التى تتكلم عنها.

* * *

ويتحدانى محمد عبد القادر قائلا:

أين هى حريتك.

هل اخترت مولدك.

هل اخترت أباك وأمك ودينك ووطنك.

هل اخترت شكلك وطولك وعرضك.

هل اخترت النظام الذى تعيش فيه.

* * *

ويكتب عبد الرؤوف.. ليسانس فلسفة بحثا يقول فيه:

إنى أكون حرا عندما أكون أنا الله.. أو حينما أكون أنا العالم.. حيث لا يوجد شىء سواى أخضع له وأتقيد به.

إن الحرية الكاملة تستلزم عدم وجود شىء غيرى لأن أى شىء يحدنى.. الناس.. والطبيعة.. والظروف.. كلها حدود.. ومثل هذه الحرية مستحيلة..

وإذن فأنا لست حرا إلا بقدر ما عندى من وسائل تحقيق هذه الحرية.

إن حريتى مشلولة وناقصة.

* * *

وينتهى عبد الفتاح سليم إلى أنه مسير مقهور على حاله وأفعاله، ثم يسأل كيف يكون مسيرا ومقهورا ومجبورا بهذه الكيفية ويحاسبه الله ويعاقبه أو يكافئه ويجزيه.. أين وجه العدالة الالهية فى القضية.

أما أحمد الألفى فينتهى إلى أنه حر ولكنه يتساءل كيف يكون حرا ويتدخل الله لنجدته.. ألا يكون فى هذا التدخل إخلال بحريته..

كيف يمكن التوفيق بين فكرة الحرية وفكرة العناية والتدخل الالهى.

كيف نكون أحرارا وكل ما نفعله بأمر الله.. قدره علينا منذ الأزل.. هو الذى خلقنا وخلق أفعالنا وهو الوحيد الذى يفعل.. لا إله إلا هو وما نحن إلا أدوات إرادته.

* * *

وبهذه الخطابات والتساؤلات يحيط القراء بكل جوانب المشكلة الأزلية.. مشكلة المخير والمسير.

وهم يحشدون أسلحتهم ضدى ويشحذون أدمغتهم.. ويصرخون فى وجهى فى صوت واحد.

وهذا وحده أول دليل على حريتهم فقد صنع كل واحد منهم رأيا مستقلا ولم يتقيد بكتبى ولا مقالاتى ولم يخضع لوجهة نظرى.

وأنتقل إلى إعتراضاتهم فأقول إن أغلبها يدور حول نقطة واحدة.. هى القيود المضروبة حولنا.

وبعض هذه القيود تصل إلينا بالوراثة مثل الاسم والجنس والدين والوطن فنولد بها كما نولد بجسمنا.

وبعضها يصل إلينا من بيئتنا.. مثل الطبيعة التى نعيش فيها

حرها وبردها ورعدها وميكروباتها وأمراضها وناسها.

وبعضها من صنعنا وابتكارنا مثل القوانين والأخلاق والنظم السياسية.

وجميعها فى النهاية تقيدنا فلا يبقى لنا إلا القليل أو ما دون القليل.

وهذا يجعل القارئ عبد الرؤوف يقول:

إن الحرية مستحيلة.. وإنها إذا كانت ممكنة فليس لها إلا طريق واحد.. أن يفنى كل شىء حولنا وينعدم. وأن أصبح وحيدا مفرداً مثل الله بلا شريك وبلا آخرين معى وبلا أشياء.. ذات حرة بدون مقاومات من أى نوع.

والقارئ ينسى أن الحرية تفقد معناها بمجرد سقوط المقاومات حولها لأن انعدام المقاومات وامتلاكى لكل شىء فى كل وقت معناه انتفاء كل نقص عندى ومعناه كمالى لأنى أصبح الكل فى الكل.. وبالتالى تنعدم مطالبى ورغباتى لأن المطالب والرغبات منبعها احتياجاتى.

وبانعدام الرغبة والمقاومة يسقط معنى الحرية لأنها تكون استهدافا فارغا إلى لا شىء وتكون هى ذاتها لا شىء.

إن مشكلة الحرية ترتبط دائما برغبة تتأجج فى الصدر ومقاومة تقف فى سبيلها..

وتتأكد الحرية بانهيار المقاومة وتراجعها أمام الإرادة..

بهذه الصورة الجدلية تكشف الحرية عن مدلولها فى الواقع.

أما الانسان الأوحد المنفرد الذى تلاشت من أمامه الظروف والمقاومات وانعدم كل شىء حوله.. وأصبح هو الكل فى الكل.. واشتمل على العالم فى ذاته.. وتحول إلى إله.. ماذا يطلب هذا الكائن وأى شىء يعترض مطلبه لتصبح حريته أو عدم حريته محل سؤال.

أين الصراع الذى تكشف الحرية مدلولها من خلاله.

إن مثل هذا الكائن لايتحرك ولا يرغب ولا يأكل ولا يشرب ولا ينمو ولا يكبر ولا يموت ولا يولد.

إنه يعيش فى سكون وأبد وعالم بلا زمان ولا مكان وكلمة الحرية بالنسبة له هى غير الحرية التى نعرفها ونتكلم عنها فى عالمنا..

ماذا يطلب وهو المستغنى المكتفى بذاته؟..

إن الحرية التى نتداولها كلمة بشرية صرفة.. كلمة لا معنى لها إلا بوجود القيود.. بوجود المقاومات.. بوجود الظروف التى يصرخ منها القراء ويضجون ويشتكون.

إن نطاق الحتمية المضروب حولهم هو الذى يجعل لحريتهم معنى وليس هو الذى يهدمها كما يظنون.. لأن الحرية تعبر عن نفسها باختراق الظروف وزحزحة المقاومات وهدم العقبات..

الحرية عملية مرتبطة باحتكاك الانسان ببيئته وبظروفه ويلغيها أن يصبح الناس آلهة..

إن السؤال المهم هو:

هل تذوب المقاومات مع الزمن..

هل تتقهقر العقبات.. عقبة خلف أخرى تحت ضغط الارادة وإصرار الانسان أم أن كل حياتنا كالحارة السد..

والجواب نعم.. تتقهقر العقبات.. ويتقدم العلم ويتحكم فى الحر والبرد والريح والماء والهواء ويطور القوانين والأنظمة إلى أحسن وأحسن..

وفى هذا دليل واقعى أكيد على حرية الانسان.

* * *

اضغط على الزر الكهربائى فى غرفتك فينتشر الضوء وينهزم الظلام.

ألا تحس أن هذا الكسب العلمى البسيط أضاف إلى حريتك ومثل هذا الكسب ألوف غيره تنتفع بها فى كل لحظة.. حينما تضع رجلك فى ترام أو تدخل سينما أو تقرأ كتابا أو تتحدث فى تليفون.

إن كل شىء يصرخ فى أذنيك بأن الحرية حقيقة والتاريخ يلهث جريا إلى الأمام ليؤكد لك أنك حر.. والأقمار الصناعية تهتف فى الفضاء بأن من يجتهد يصل وأن الطريق مفتوح أمام إرادة البشر.

وما القدر إلا مجرد واسطة تكشف بها الحرية عن ذاتها وتؤكد وجودها..

ويصرخ القارئ قائلا.. هل أنا حر وأنا لا أكاد أملك الكفاف فيثير بذلك قضية الحرية بمعناها الاجتماعى.. وكيف أنه لا حرية لمن لا يملك القوت.. وأن توفير القوت فى ذات الوقت توفير حرية..

والسؤال هو ما هذا القوت المطلوب توفيره؟.

أهو مائدة عليها لحم وخبز وأرز وفواكه وثلاجة لحفظ هذه الأطعمة وعربة ليقضى بها كل منا مشاويره سعيا لجمع هذا القوت؟.

إن كان هذا هو القوت المطلوب فإن توفيره لن يكون توفيرا للحرية وإنما سيكون تبديدا لها.. ومعناه أن يكون الانسان فى خدمة الطعام وليس الطعام فى خدمة الانسان.. معناه تبديد الوقت والجهد والفكر لتحقيق الوفرة المادية ومعناه أن يصبح الانسان فى النهاية عبدا لهذه الوفرة ويفقد حريته..

أما إذا كان المقصود بالقوت هو الكفاف فإن القضية صادقة فحين لاتوجد كسرة الخبز لا توجد حرية..

ولكن إذا توفرت هذه الكسرة، وهذا ميسور، فالبحث عن المزيد ليس كسبا لحرية وإنما إضاعة لها.

ولقد كان غاندى أكثر الناس حرية وهو يسعى حافيا على قدميه لا يملك إلا مغزل صوف يدويا وكيسا به بضع تمرات وعنزة يشرب من لبنها ويصنع من صوفها ثيابه.

وكذلك كان محمد والمسيح.. والأحرار العظام الذين صنعوا لنا حرياتنا وغيروا التاريخ..

وشرط الحرية هنا هو الكفاف لأن أكثر من هذا خضوع لعبودية البطن كما أن إضاعة العمر فى الجرى وراء النساء هو خضوع لعبودية الشهوة..

ولا يحق للقارئ أن يصرخ لأنه لا يملك إلا الكفاف قائلا لقد فقدت حريتى.. أين حريتى..

بل لقد وجدت حريتك مادمت قد وجدت الكفاف.. فما يزيد على الكفاف ليس حرية بل عبودية..

* * *

أما الاعتراض بأن الأخلاق قيود على الحرية.. والقانون قيد على الحرية والضوابط الدينية قيود على الحرية فهو غير صحيح فكل هذه الضوابط مثل إشارات المرور الأحمر والأخضر والأصفر.

وبدون إشارات المرور تتصادم العربات ويقف المرور ويفقد كل سائق حريته.

إنها ضوابط هدفها إتاحة الفرصة لأكبر قدر من الحرية وليس مصادرة للحرية.. وإنما الحرية تستحيل بدونها لأن المجتمع يتحول إلى غابة ويأكل بعضه بعضا ويهلك..

وأنت حينما تقيم الضوابط على شهوتك تكسب حريتك لأنك تصبح سيد نفسك لا عبد الغريزة التى تطيح بعقلك فى لحظات..

وبالمثل الشجاع أكثر حرية من الجبان وأكثر حرية من المتهور.
والكريم أكثر حرية من البخيل وأكثر حرية من السفيه.

والصبور أكثر حرية من الجزوع الهلوع.

حرية القمار والسكر وتدخين المخدرات والتبذل الجنسى فهى حريات.. إنها درجات من الانتحار وإهدار الحيـاة وبـالتالى إهدار الحرية..

وكل اختيار ضد القانون الطبيعى ليس اختيـارا وإنمـا إهـدار الاختيار.

وكلنا نعلم أننا إذا أردنا أن نزداد حرية ونحـن نسـبح نختـار السباحة مع التيار وليس ضد التيار.

وحينما وضع الانسان الأول مروحة فى اتجاه الريح دارت المروحة واستطاع بذلك أن يصنع طواحين هوائية يسخر فيها الطبيعة لخدمته وبذلك ازداد حرية.

وهو الآن يضع التوربينات فى مساقط المياه ويولد الكهرباء.

الحرية كانت دائما فى اكتشاف القانون الطبيعي والعمل فى اتجاهه وليس العمل ضده.

وهى بالمثل اكتشاف قوانين الجسم والنفس والـروح والعمـل فى اتجاهها بالأخلاق واحترام الآخرين والتدين وطاعة القوانين.

* * *

أما القارئ الذى يتحدانى قائلا:

هل إخترت شكلك وطولك وعرضك..

فإني أقول له لم أختر شكلى ولا طولى ولا عرضى.. ولا أرى هذه الأشياء قيودا على حريتى.. بل أراها على العكس أدوات حريتى

فالجسم هو أداة الارادة فى بلوغ أغراضها.

وهو لا يكون قيدا إلا فى حالة المرض فإنه يتحول إلى سجن ولكن الله أعطانا العقل لنتغلب على أمراضنا بالتداوى والجراحة. ونحن نتقدم فى هذه الميادين كل يوم.

ويبقى بعد ذلك اللغز الأزلى.. فى علاقة الانسان بالله.. كيف يكون الانسان حرا وهو من أمر الله وكل مايفعله بقضائه وقدره.. ثم كيف يحاسب بعد ذلك وأخطاؤه مقدورة عليه.

وهو لغز القدر الذى حثت الأديان على البعد عن الخوض فيه لأن الجواب لا يمكن أن يأتى إلا مكاشفة وإلهاما عن طريق القلب وليس العقل.. ولأن المعول فيه على إيمان المؤمن لا فلسفة الفيلسوف.. لأن العقل فيه لا يجدى والفلسفة لا تنجد.

وإنما لابد من أن يشف القلب وترق الحواس لترتفع الحجب ويستطيع الانسان أن يرى بعين البصيرة وليس بعينه البشرية ويتجاوز سجن الواقع المحدود بالأسباب والمسببات ليطل على ما وراءه.

لأن الجواب الكامل يحتاج إلى معرفة علاقة الروح بخالقها وهو أمر محجوب.

ولكن هناك كلمات قليلة يمكن أن تقال كدليل طريق.

فالانسان حر هذا صحيح ولكن حريته مخلوقة أى مقدورة عليه..

وهذا أشبه بأن نقول إنه محكوم عليه بالحرية مضطر للاختيار وهذا يضعه فى منزله بين منزلتين.

فهو ليس حرا حرية الله المطلقة.

وهو ليس مقهورا مسيرا مجبورا جبر المادة العمياء.

وحينما نقول إن النار تأكل الحطب فهذه علاقة جبرية حتمية أى أنها لابد أن تأكل الحطب حتما فلا يمكن أن تكون مسئولة.

والمادة كلها ترسف فى هذه الحتميات.

والانسان ليس مسيرا بهذه الدرجة.

ولا هو حر بحرية الله المطلقة.

إنما هو فى منزلة بين المنزلتين.

فهو مخير فيما يعلم، مسير فيما لا يعلم.

أو هو بكلمة أدق مخير مسير فى ذات اللحظة و هذا هو ما نسميه بالحرية البشرية ولهذا أيضا فهو مسئول بدرجة وليس مسئولا بشكل مطلق.

فكما أن القاضى يحكم ويدخل فى اعتباره الظروف والدواعى والمغريات والضغوط النفسية فيخفف ويشدد بناء على هذه الاعتبارات.. كذلك يحكم قاضى الأزل الذى لا يخفى عليه شيء.

ولكن لن يكون الانسان غير مسئول لأن مقامه ليس مقام المـــادة العمياء..

والله لا يأمر الظالم أن يظلم..

وإنما هو يعلم أنه سوف يظلم بحكم أنه محيط بكل شيء علما.

وفارق بين سبق العلم وبين الاكراه.

الله أعطانا الحرية وهو يعلم منذ الأزل ماذا سنفعله بهذه الحرية.

وهو يقول لنا إنه لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم. ويقول لنبيه.. لا إكراه فى الدين..

لأنه لا يتدخل ولا يحب لأحد أن يتدخل بإكراه النفوس على غير طبائعها لأن ذلك يتنافى مع قدسية الحرية التى أرادها لها.

إذن الحرية حقيقة..

ولأن هذه الحرية هى إرادة الله فهى جبر واختيار فى ذات الوقت.

وإنما تكون الرحمة الالهية بأن تجد النفس تيسيرات مـن جنس طبعها «كل إنسان ميسر لما خلق له».

ولهذا لا يتنافى التدخل الإلهى مع الحرية بل يؤكدها.

إن كل نفس تجد جميع الظروف ميسرة لتفصح عـن مكوناتها وتحقق ذاتها بالخير أو بالشر.. لتكون كما هى..

أما كيف يخلق الله واحدا ليظلم كما يخلق آخر ليعدل فتفسيره أن

إرادة الله مطلقة فهو يريد المحبوب كما يريد المكروه.

ولكن قضت عدالته بعد ذلك أن يختار من يحب لما يحب وأن يختار من يكره لما يكره.. فاختار الشرير للظلم والخير للعدل.. ولو أنه اختار الشرير ليعدل والخير ليظلم.. لانقلب الميزان وهذا مستحيل فى حقه فهو الكامل فى عدالته.

هذه مجرد إشارات.. أما كمال العلم فهو من أمور البصيرة .. ومما لا تنفع فيه الكلمات العادية المبتذلة فى التعبير.

وكشف جميع جوانب اللغز وإدراك معقولية التناقض.. وكيف أن «الانسان مخير مسير» فى ذات اللحظة.. هو رهن بالمجاهدة وانفتاح القلب وشفافية الروح وليس من علوم الكلام.

النـوم

أنت حينمـا تنـام .. تتحـول إلـى شجرة ..

هناك زر كهربائى فى المخ ينطفئ فى لحظة النوم.. فيسود الظلام وتسود الغيبوبة.. وتمر الشخصية بحالة غرق ويتحول الانسان إلى شجرة.. إلى نبات بدائى.. إلى شىء تستمر فيه الحياة على شكل وظائف.. دورة الدم تجرى.. التنفس يتردد.. الخلايا تفرز.. الأمعاء تهضم.. كل هذا يتم بطريقة تلقائية والجسد ممدد بلا حراك.. تماما مثل نبات مغروس فى الأرض تجرى فيه العصارة وتنمو الخلايا وتتنفس من أكسوجين الجو.

إنها لحظة غريبة يسقط فيها الجسد فى هوة التعب والعجز.. ويستحيل عليه التعبير عن روحه ومعنوياته الراقية فيأخذ إجازة.. ويعود ملايين السنين إلى الوراء.. ليعيش بطريقة بدائية كما كان يعيش النبات.. حياة مريحة لا تكلف جهدا..

إن سر الموت يكمن فى لغز النوم.. لأن النوم هو نصف الطريق إلى الموت، نصف الانسان الراقى يموت أثناء النوم.. شخصيته تموت.. وعقله يموت.. ويتحول إلى كائن منحط مثل الاسفنج والطحلب يتنفس وينمو بلا وعى.. وكأنه فقد الروح.

إنه يقطع نصف الطريق إلى التراب.. ويعود مليون سنة إلى الخلف..

يعود عقله الواعى إلى ينبوعه الباطن. وتعود شخصيته الواعية إلى ينبوعها الطبيعى الذى يعمل فى غيبوبة كما تعمل العصارة فى لحاء الشجر.. ويلتقى الانسان بخاماته الطبيعية.. بجسده وترابه ومادته والجزء اللاواعى من وجوده..

إن الشعراء يقولون إن لحظات النهار سطحية لأن ألوان النهار البراقة تخطف الانتباه.. ولحظات الليل عميقة لأن الليل يهتك هذا الستار البراق ويفك أغلال الانتباه فيغوص فى أعماق الأشياء..

وأنا أقول إن لحظة النعاس هى أعمق اللحظات لأنها تهتك ستارا آخر هو ستار الألفة.

النعاس يمحو الألفة بينى وبين الأشياء فتبدو غريبة مدهشة مما يدعونى أحيانا إلى التساؤل.. وأنا أنظر حولى فى غرفة نومى بين النوم واليقظة.. وأهمس: أنا فين؟..

وهذه اللحظة لحظة عميقة.. لأن العقل يخرج فيها من إطار ظروفه ويتحرر من الألفة والتعود والأحكام العادية وينظر حوله من جديد.. ليصدر أحكاما جديدة أكثر تحررا.. وإلهاما.

والأنبياء كانوا يتلقون إلهامهم فى هذه اللحظة.. وكان الوحى يأتيهم بين النعاس والغيبوبة..

ونيوتن اكتشف قانون الجاذبية فى هذه اللحظة.. وهو ينظر بعين نعسانة إلى تفاحة تسقط من الشجرة.. لقد أحس أن سقوط التفاحة أمر غير مألوف.. وأن التفاحة لا يمكن أن تسقط على الأرض.. وإنما الأرض هى التى يجب أن تجذبها..

وكل المخترعين والمؤلفين والشعراء والمفكرين... تفتقت أذهانهم فى هذه اللحظة.. لأنها اللحظة الحرجة التى سقط فيها المألوف.. والمعتاد.. ولمعت الحياة بالدهشة.. وبرق العقل بأسئلة جديدة تماما.. لم يكن ليلقيها لو كان فى كامل يقظته.. وكامل ارتباطه بالأشياء..

والفرق بين النبى.. والعبقرى.. فى تلك اللحظة هو مساحة الرؤيا التى تنكشف لكل واحد.

النبى يشبه جهاز تليفزيون به مليون صمام.. مساحة الرؤيا فيه شاسعة.. وقدرة استقباله كبيرة.. فهو يستطيع أن يستقبل صورا من المريخ على شاشة بانورامية عريضة لأنه مؤيد بوسائل إلهية.

والعبقرى هو جهاز ترانزيستور صغير يكاد يستمع إلى محطة القاهرة بصعوبة.. لأنه يعتمد على اجتهاد الخاطر الذى قد يخطئ وقد يصيب..

ولكن الاثنين يسبحان جنبا إلى جنب فى بحر الحقائق.

والنوم فى حقيقته يقظة عميقة. تتيقظ فيه الـوظائف الأصـيلة.. فتنتظم دورة الدم.. وينتظم التنفس.. وينتظم الهضم.. والامتصـاص والإفراز.. ويتوقف الهدم.. ويبدأ النمو والبناء ويقل الاحتراق الـذى يحدث فى النهار.

وتتيقظ رغبات أكثر أصالة من رغبات النهار..

الغرائز كلها تتيقظ وتعمل.. وتنشر نشاطها فى الأحلام.. وتفضـح عن نزواتها على مسرح رمزى مبهم لا يستطيع فك رموزه وطـلاسمه إلا صاحبه.

ويدخل النوم بعد هذا فى مرحلة أعمق.. هى النوم الثقيل.. وهـى مرحلة تخلو من الاحساس تماما.. وتخلو من الأحلام أيضا.. مـرحلة من الظلام.. والعدم.. وهوة بعيدة الغور.. ومسـاحة مشـطوبة مـن الحياة.. ليس فيها وعى ولا زمن.. ولا مكان.. العشر ساعات تمر فيها كلمح الطرف بين غمضة العين وانتباهتها.. بدون إحساس بـالمدة.. وكأن خيط العمر قد انقطع فجأة..كما يحدث حينما نقـطع أشرطـة التسجيل ثم نوصلها من جديد ليستمر سياق الكلام كما نريد.

السياق الزمنى فى النوم غريب.

إنه زمن آخر غير زمن الساعة.. فالحلم قد يحتوى على أحـداث سنة كاملة بتفاصيلها من حب إلى زواج إلى طلاق إلى جريمة ومـع هذا لا يستغرق بحساب الساعة أكثر من ثانية..

والعكس يحدث أحيانا فتمر على النائم عشر ساعات وفى ظنـه أن عقرب الساعة لم يتحرك إلا دقائق معدودة..

الزمن يتخلص من قيود الساعة أثناء النوم.. ويخضع لتقدير آخر هو تقدير المخيلة التى توسع وتضيق فيه علـى حسـب ازدحـامها بالحوادث والرغبات.

إنه من صناعة النائم وخلقه.. فهو ذاتى صرف..

النائم كالفنان الذى يؤلف قصة. يخلق زمن القصة كمـا يـريد.. ويعيش فى قمقم خرافى من أوهامه.. يتمطى فيه ويصرخ بالرغبة التى يحبها. فى حرية مطلقة تصل إلى حد العبث.

ومعظم أحلامنا عبث فى عبث.. وأمنيات مستحيلة.. ولكننا نعيشها كما نريدها ونحن نائمون.

* * *

والنوم أرخص أنواع الحياة من حيث الكلفة.. فمقـدار السـكر والأكسوجين الذى يحتاج إليه النائم ليستمر فى الحياة أقل بكثير من المقدار الذى يحتاج إليه فى اليقظة.

والانسان الذى يعيش مائة سنة بين نوم ويقظة يستطيع أن يعيش ثلاثمائة سنة إذا أخذ فى حَسابه أن ينامها كلها.

* * *

ومادة النوم رخيصة.. لأن الانسان يقترب فيه من التـراب..ويعود إلى الآلية الكيميائية المتأصلة فى خلاياه من بداية الحياة..

كيميا الحياة

بين الحياة والموت .. خيط رفيع

حينما دبت الحياة على مسرح الدنيا منذ ملايين السنين.. كان المسرح يختلف كثيرا عن حاله الآن.. كانت الأرض ساخنة والجو مثقلا بالبخار.. ولم يكن الأكسجين بهذه الكثرة وإنما كان نادرا.. وكان الغاز المنتشر بكثرة هو الأيدروجين والنوشادر والميثان وأول أكسيد الكربون.. وكان ومض البرق وفرقعة الرعد والضوء فوق البنفسجى والاشعاع الذرى والشحنات الكهربائية العالية لا تنقطع.. وكانت المياه تغمر مساحات واسعة فى برك ضحلة.. ولم تكن المياه صافية رائقة يطفو عليها الطحلب الأخضر كمياه الغدران الآن.. وإنما كانت مياها عكرة كثيفة كالحساء مليئة بأملاح الفسفور والكالسيوم والصوديوم والبوتاسيوم والحديد والكبريت..

فى هذا المسرح الكيميائى النشط.. بدأت الحياة.. ولهذا لابد لنا أن نتكلم قليلا فى الكيمياء.. ولابد للقارئ أن يتحمل معنا عناء رحلة فى مجاهل علم الكيمياء.. إذا أراد أن يعرف سر وجوده.

استطاعت المعامل أن تثبت أن مادة الحياة واحدة تقريبا فى كل الكائنات الحية.. وأن الفوارق بين تركيب لحم الحمار ولحم البنى آدم ولحم الحشرة.. فوارق طفيفة لا تذكر.. وأن كل المواد التى تتألف منها البنية الحية لا تخرج عن كونها سكريات ونشويات ودهنيات وبروتينات.

وأثبتت المعامل أيضا أن هذه المواد جميعها هى تعقيدات مختلفة لمادة واحدة هى الأيدروكربون.. كل المواد الحية مشتقات من مادة هيدروكربونية.. من غاز الميثان.. وهو غاز يتألف من الكربون والأيدروجين.. فما هو الشيء السحرى الذى جعل مادة الكربون بالذات هى المادة المختارة لنشأة الحياة.

السر أن هذه المادة قلقة غير مستقرة.. غير مشبعة.. فيها قابلية لا نهائية للارتباط بعدد لا نهائى من المركبات والمبادلة عليها بذراتها فى كل وقت..

وقد ثبت أن المواد المستقرة التى يسمونها فى الكيمياء المواد النبيلة كالذهب والبلاتين وغاز الهليوم والأرجون والكربتون.. كل هذه المواد ظلت مواد عاطلة خاملة مثل الأمراء الخاملين.. بدأت وانتهت على حالها دون أن تعطى إمكانيات جديدة.. والسبب أن ذراتها مشبعة متوازنة مستقرة لدرجة الموت.. ولهذا لم يدخل أى واحد من هذه العناصر فى تركيب الجسم الحى. وإنما اختارت الحياة مادة واحدة بعينها شديدة القلق ناقصة غير مشبعة كثيرة الانفكاك والارتباط بالمواد حولها لتكون مستقرا لها.. هى مادة الكربون لأنها

مستودع لطاقة كيميائية لا نهائية ومحل لتفاعلات لا آخر لها..

إنها هى ذاتها فيها صفات الحياة.. الفاعلية والتحول والتكاثر والتعقد..

إن مفتاح الحياة هو الكربون.. لأنه مادة جائعة غير مشبعة تنقصها أربعة إلكترونات فى مدارها الذرى لتصل إلى الراحة والتوازن.. ولهذا فهى دائما تدخل فى علاقات وتفاعلات محاولة الوصول إلى هذا التوازن.. وتكون نتيجة هذه التفاعلات متتاليات كميائية لا حصر لها.. تبدأ من غاز الميثان.. الهيدروكربون.. إلى المواد الكربوهيدراتيه كالسكريات. والنشويات.. إلى الجلسرين والدهون.. إلى البروتينات.

كل هذه المتتالية الحية هى تعقيد واشتقاق من مادة واحدة هى الكربون أو الفحم..

وقد قام ميللر بتقليد ظروف الحياة الأولى فى المعمل فأحدث تفريغا كهربائيا فى جو خال من الأكسجين وبه ميثان ونشادر وبخار ماء.. فكانت النتيجة مجموعة مدهشة من المركبات العضوية تشتمل على الأحماض الأمينية.. وهى نواة البروتينات.

واختيار الحياة لعنصر الكربون بالذات لتتخذ منه الطوب الذى تبنى به معمارها اختيار فيه حكمة.. لأن الكربون عنصر نشيط.. احتمالاته الكيميائية لا حصر لها.. وقد ثبت بالحساب أن الجزىء الذى يحتوى على عشرين ذرة من الكربون يمكنه أن يعطى مليون صورة لتركيبات جديدة.

إنه عنصر مثل الحياة مفتوح على آفاق لا نهائية.. ذرة تزيد وذرة تنقص فى الميثان تؤدى إلى تركيب الكلوروفورم.. الكحول.. النفتالين.. البترول.. الفينول.. إلخ.. ملايين المواد الممكنة.

وكل مادة عضوية لها تعقيدات.

سكر القصب وسكر الفاكهة وسكر الشعير كلها تعقيدات لسكر العنب البسيط الجلوكوز.

وزيت الزيتون وزيت بذرة القطن وزيت الفول السودانى وزيت السمك وشحم الخنزير وشحم البقر.. كلها تعقيدات للجليسرين والأحماض الدهنية..

ومادة الأظافر ومادة الجلد ومادة الشعر ومادة العظم والغضاريف والعضلات والأعصاب والدم والريش والأجنحة وقشر الحشرات وزلال البيض والهرمونات.. كلها تعقيدات واشتقاقات مختلفة من المادة البروتينية..

وأنواع البروتينات فى جسم الانسان تبلغ مائة ألف نوع.. والسر فى هذا التنوع الواسع هو فى طبيعة المادة الحية نفسها..

إن البروتينات التى تتألف من ٢٤ حامضا أمينيا يمكنها أن تعطى إمكانيات مثل التى تعطيها حروف الهجاء ال ٢٦.. يمكنها أن تعطى ألوف الكلمات وملايين الجمل.. كل جملة تختلف عن الأخرى لأن تحت يدها ٢٤ حرفا كيميائيا تصنع منها تباديل وتوافيق..

وأهم مادة حية هى البروتين لأن جزىء البروتين ثقيل فيه أكثر

من خمسة آلاف ذرة فى المتوسط.. متعدد الاحتمالات لدرجة مذهلة..

وذرات المادة البروتينية لا تعطى فقط إمكانيات متعددة لتـوليف الكيميائى.. ولكنها أيضا فى التحامها تصنع أشـكالا متعـددة مـن الالتحام. فهى تكون ملضومة أحيانا على شـكل مجمعـات كرويـة وأحيانا على شكل سلاسل حلزونية.. وأحيانا على شكل حبال مبرومة كأسلاك التلغراف وفى كل مرة تؤدى إلى شـكل تـركيبى جـديد فى وظيفته وطعمه وملمسه مع أن التركيب واحد فى الكل..

* * *

والسؤال الثانى الذى خطر ببال الكيميائيين هو الماء.. سر الماء.. ما هو سر الماء؟.

لماذا تبدو الحياة كأنها منقوعة كلها فى الماء؟.

لماذا يؤلف الماء معظم النسيج الحى.. ولماذا يدخل كشرط فى كل بنية حية؟.

لقد تعودنا أن نتعلم فى المدارس أن الماء سـائل لا طعـم لـه ولا لون ولا رائحة. وهذه أكذوبة كبرى.. لأن الماء هو أكثر السوائل نشاطا لأن تركيبه هو الآخر تركيب قلق غير مستقر غير مشبع.

أثبت الفحص الذرى للماء أن ذرة الأيدروجين فى معظم سـطحها عارية بدون إلكترونات.. ولهذا كانت شديدة الشوق إلـى اسـتعارة الكترونات من أى مادة تلامسها.. وهذا سر قدرة الماء علـى إذابـة المواد والتفاعل معها وتحليلها إلى أيوناتها.

الماء ليس خاملا.. وليس عديم الطعم.. عديم النشاط.

الماء توازنه الكهربائى ناقص.. ولهذا فهو يروى من العطش.. إن له طعما حيويا..

بدليل أن الماء الثقيل المشبع لا يروى.. وإذا شربت منه صفيحة فإنك لابد هالك عطشا.

والماء له فعل آخر.. إنه يحول مادة البروتين إلى كتـل غـروية جيلاتينية فى حالة تماسك كهربائى لا هو بالتجبن ولا هو بـالتخثر.. وبهذا يصنع خامة حية شديدة الحساسية لتقلبات البيئة وهذه صـفة أساسية فى الحياة.. شدة الحساسية وعدم الثبات والقلـق والتغيـر والتحول.

هذا البحث يثبت لنا فى النهاية أن مادة الحياة فيها حياة.. فيهـا صفات الحياة.. وأن نشأة الحياة من مركبات الكربون والماء لم تكن مصادفة.. وأن الحياة لو لم تنشأ من الكربون لنشأت من الـكربون.. وأن الاحتمال أكبر من أن يكون مجرد خبطة عشوائية.

إنه ضرورة..

وهذا يجعلنا نسأل.. ما هى المادة..

وما حقيقتها.. !!؟

التراب

إن ذرة التراب ليست شيئا تافها ..
إن فيها حركة.. وفيها نبض..

هل المادة شيء جامد فعلا؟!!.

هل هي كتلة من السكون والهمود والموت.. عديمة النشاط والفاعلية؟..

لا..

إن هذه كذبة..

وكلمة جماد نفسها أكبر كذبة..

إن الجماد في حقيقته غير جامد ولا حتى سائل.. إنه مخلخل من داخله ومؤلف من منظومات هائلة من الذرات والجزيئات تسبح في فراغ أثيرى..

والجزيء هو معمار من الذرات..

والذرة نفسها معمار جميل من جسيمات صغيرة نووية تدور حولها كهارب غاية فى الصغر منتظمة فى أفلاك.

والذرات والجزيئات مترابطة مع بعضها بقوانين من الجذب والتنافر تشدها إلى بعضها دون أن تسمح لها بأن تصطدم ببعضها وتذوب وتفقد شكلها وشخصيتها..

إنها كالشمس ومنظومتها الكبرى من الأقمار والكواكب.. تترابط بالجاذبية.. ولكنها جاذبية لا تزيد إلى القدر الذى يؤدى إلى تلاحمها وفنائها فى بعضها.. وإنما هى جاذبية يعادلها تنافر يؤدى إلى احتفاظ هذه الأجرام السماوية بأشكالها وشخصياتها..

وهى تدور حول بعضها.. كما تدور كهارب الذرات.. وكما يدور كل شىء فى العالم حيا وميتا.. جامدا وسائلا وغازيا..

ولا فرق بين جامد وسائل وغازى، إلا فى سرعة الدوران.. السائل ذراته أسرع.. والغاز ذراته أسرع جدا.. ولذلك تتفكك جدا وتصبح هباء منثورا.. أو بالتعبير الساذج.. هواء.

إن ما يبدو من شكل التراب على أنه شىء عشوائى فوضوى غير مرتب بلا شكل ولا نظام.. هو مظهر غير صحيح.. فالتراب فى أدق دقائقه فيه نظام.. وله شكل.. وله ترتيب وتفصيل. وفيه حركة مبثوثة فى ذراته..

وكل شىء فى الكون له صورة ونظام وتفصيل وفيه نبض..

وهنا يبدو الفاصل بين الحى والميت فاصلا رفيعا.. وهو يزداد

شفافية كلما نظرنا بتعمق فى طبيعة المادة..

فالمادة ليست فى حالة حركة فقط.. وإنما هى فى حالة حركة هادفة أيضا..

إن ذرات الكربون غير المشبعة تتحرك هادفة نحو التشبع والتوازن وتعقد علاقات وتراكيب وتفاعلات مع المواد الأخرى بهذا القصد..

ومعنى هذا أن تركيب المادة فيه نظام وحركة وهدف..

وليس هذا فقط بل إن تكوينات المادة فيها طابع الشخصية والتفرد أحيانا.. وهى تلتزم طابعها وتحافظ عليه.. فمادة كبريتات النحاس تنظم نفسها فى بلورات محددة ذات شكل محدد وهى تجدد نفسها فى المحاليل بنفس الشكل دائما.. وهى تنمو فى المحاليل وإذا قطعت بلورة منها إلى جزأين فإن كل جزء ينمو محتفظا بطابعه.

وأغلب المواد العضوية وغير العضوية لها بلورات مميزة تعرف بها كما يعرف الأشخاص ببصمات أصابعهم..

الحديد له بلورات.. والنيكل له بلورات.. والسليكا لها بلورات.. والصخور ـ من كل نوع ـ لها بلورات..

والذى شاهد هذه البلورات تحت الميكروسكوب يشهد أن فيها جمالا هندسيا قد استوقفه طويلا..

ومعنى هذا أن المادة الجامدة الميتة.. فيها حركة.. واستهداف نحو التوازن.. والنظام.. والجمال.. والتفرد.. والتبلور..

وهذه الصفات تكسر السد القائم بين الحياة والموت.. وتكشف عن صلاحيات الحياة فى المادة الجامدة الميتة.

إنها لا تصبح مادة فارغة مهوشة.. وإنما تصبح منظومة لها صورة.

والفرق بين الحياة والموت يصبح فارقا فى الدرجة.. فارقا فى درجة التعقيد.. وفى درجة التركيب.. وفى درجة الانتظام فى صور منفردة.

إن منظومة الحياة هى منظومة غاية فى تعقد التركيب وغاية فى التخصص.

ولكن إمكانيات هذه الحياة الرفيعة المتخصصة باطنة فى المادة..

ولا يعنى هذا أن الحى ميت.. والميت حى.. وإنما يعنى أن الصلة غير مقطوعة بين المادة الحية والميتة.. يعنى أن العالم متدامج فى وحدة ومنبثق من أصل واحد وطبيعة واحدة يعنى أن الروح مبثوثة فيه كله.. والعقل باطن فى كل تضاعيفه.. بشكل جعله كله مصورا فى تراكيب وأنماط وقوالب وطرز فيها نظام وقانون وجمال.. ومهما بلغت الفروق بين هذه القوالب والطرز والأنماط الحية والميتة.. فإن التعمق فى فهمها يردها جميعا إلى أصلها الواحد وجذعها المشترك الذى انبثقت منه.. إنه يكشف عن تشابهها جميعا.. ووحدتها الجوهرية.

إن الكون يمت لبعضه بصلة القرابة.

نحن والشمس والقمر والثعبان والميكروب أولاد عمومة واحدة..

وحينما كشف داروين عن تأصل الأنواع جميعها فى نظريته عن التطور.. ضحك عليه الناس.. كيف يكون القرد والانسان أولاد عمومة واحدة.

ولكن داروين برهن بالدراسة التشريحية أن المسألة ليست نكتة وأن التركيب التشريحى والسلوك الوظيفى للحيوانات والنباتات والأحياء جميعها يسلكها فى عقد عائلى واحد.

وداروين لم يكن يحلم أنه بعد أن يموت ويشبع موتا سوف تستجد براهين أكثر خطرا من براهينه عن تأصل الأنواع..

ولكن هذا هو ما حدث.. ففى المجال الكيميائى ثبت أن كل الأحياء ذوات نسيج تركيبى واحد.. كلها منظومات كربونية..

وثبت أيضا أنها تحمل شبها تفصيليا أكثر دقة.. فجميعها مؤلفة من جزيئات ذات ترتيب يسارى..

ثم كشفت الدراسة التفصيلية للذرة عن تشابهات أعمق فى الكون كله.. أحيائه وأمواته.. فالكون كله منظوم نابض هادف فيه جمال وقانون وإيقاع بديع..

وبهذا امتدت صلة القرابة التي كشفها داروين بين الأحياء فاشتملت على الأموات أيضا وسلكت الكون كله فى وحدة واحدة.. وجوهر واحد.. وأصبح الفارق بين شكسبير وهو يبدع أشعاره وبين المحار وهو يبدع صدفته وبين المادة الجامدة وهى تبدع بلوراتها الهندسية.. فارقا فى الدرجة.

الكون هرم يتربع الانسان على قمته.. ولـكن فى كل حجـر مـن حجارة الهرم مرحلة من هذا النظام البديع الذى كان تتويجه النهائى الانسان.

وهو تتويج مؤقت.. لأن الوجود دائب على الابداع وسوف يعلـو إلى ما هو أكثر تفوقا ونظاما وروحا من الانسان..

إنى حيثما أدرت بصرى فى الكون من أصغر ذراته إلـى أضـخم شموسه ومن أدنى ميكروباته إلى أسمى مخلوقاته.. ومن ترابه إلـى ذهبه وماساته ولآلئه.. وجدت النظام.. والجمال.

إن الله متجل فى الكون كله..

رأس النملة

حتى الوردة فيهــا عقــل ..

اسمعوا.. هذه ليست نكتة..

إن الوردة فيها عقل.

وسنبلة القمح فيها عقل..

وشجرة البلوط لها عقل.. وإن كان عقلا «تخينــا» مثــل جــذعها «التخين».

إن حركة زهرة عباد الشمس وهى تلوى عنقها لتتجه نحو الشمس لا تختلف كثيرا عن حركة النحلة وهى تطير محلقة إلى الحقل لتجمع العسل.. ولا عن معركة الانسان الواعية وهو يطير ليقتحم المخــاطر مستهدفا رسالة سامية..

إن بين الثلاثة ترابطا حيويا.

إن الثلاثة منظومة متصلة الحلقات الفارق بينها فارق فى الــدرجة فقط..

إن حركة زهرة عباد الشمس فى بساطتها.. عقل.. فما هو العقل؟.

إنه قدرة تصرف وتكيف بالبيئة..

إنه فى كلمات قليلة بسيطة.. القدرة على اتخاذ موقف انتقائى أكثر ملاءمة للحياة فى كل لحظة.. والزهرة حينما تلوى أوراقها نحو الضوء تتخذ موقفا انتقائيا أكثر ملاءمة لحياتها.. إنها تتحرك حركة عاقلة..

ومعنى هذا أن العقل ليس شيئا جديدا فى الانسان.. إنه فى الطبيعة الحية كلها.

كل الفرق أن الانسان لديه وسائل أكثر يتصرف بها ويحتال بها على بلوغ أهدافه..

الانسان بحكم كونه مخلوقا معقدا يملك أجهزة متعددة كل منها على درجة فائقة من التخصص.. فهو يملك يدين فيهما عشرة أصابع.. ويملك لسانا ناطقا.. ويملك عينين مبصرتين وأذنين حادتين.. وبشرة حساسة.. وأنفا شماما.. وكل هذه الأجهزة فى خدمة عقله..

الانسان حيوان إقطاعى عنده عشرة آلاف فدان من المواهب وعمارات من الأعصاب والحواس المرهفة..

وهو لهذا ظلم نفسه وظلم غيره من المخلوقات حينما اعتبر نفسه الوحيد العاقل بينها.. وهذه خرافة إقطاعية غير صحيحة.

العقل باطن كامن فى كل الطبيعة الحية.

ومنذ أن نبضت الحياة فى الأميبا الحقيرة ذات الخلية الواحدة

وحركة هذه الأميبا فيها كل الحذر والتلصص والخبث وسوء النية التى فى الانسان.. لا جديد فى الانسان.. وإنما هناك التكامل

* * *

والنفس..

ما النفس..

ما الغرائز..

إنها الحوافز البدائية التى كانت تحفز الحيوان ليسعى فى حياته ومعاشه.

الجوع الذى يحفزه إلى الطعام.. والعطش الذى يحفزه إلى الشراب.. والجنس الذى يحفزه إلى التلاقح والتكاثر..

وهى نفس الحوافز التى نشأت منها الحوافز العصبية المتعددة فى الانسان.. الطمع والخوف والجزع والغضب والكراهية والحب.. وهى مثلها.. مجموعة إشعارات وإنذارات عصبية عن حاجات البدن الملحة الضرورية.

وعيب فرويد أنه وقف عند هذه الإشعارات والغرائز والحوافز واعتبرها مفتاح شخصية الانسان ومفتاح سر الحياة ولغزها..

ولكن الحقيقة أنه لا الغرائز النفسية.. ولا حتى المنطق العقلى.. يمكن أن يصلح مفتاحا لسر الحياة..

الحياة لا يمكن تفسيرها بأنها رد فعل غريزى لطلب الطعام

والجنس ولا يمكن تفسيرها بأنها تصرف منطقى للتكيف بالظروف.

هذه صفات فى الطبيعة الحية.. ولكنها ليست مفتاحا لسرها..

الحياة ليست محفوزة من الخلف.. وليست منخوسة من ورائها بمنخس الغرائز.. وإنما هى واثبة متطلعة إلى الأمام بفطرة إرشادية عالية وبعاطفة مبثوثة فى خلاياها وأعصابها وقلبها.

الحياة ليست مدفوعة من الماضى.. ولكنها مرتمية فى المستقبل بفطرة توجيهية باطنة فيها..

الحياة ليست مقهورة بقضاء محتوم يدفعها من خلفها.. وإنما هى رشيدة مختارة بصيرة تنتقى لنفسها على الدوام، ناشدة هدفا فى الغد..

إن فيها مثيرات باطنة ترتفع بها فوق نفسها.. إنها تتحرك بكامل صحتها وشبعها طالبة مستوى فوق مستوى حياتها الروتينى المتكرر المتشابه.

إن حب الجمال والخير والحق هو فى النهاية أحد المثيرات والمغريات المتأصلة فى الصميم الحى.. وليس هناك فارق كبير بين قدرة شكسبير على إفراز الأشعار.. وقدرة المحار على إفراز اللآلئ.. وقدرة خلايا الفراش على رسم الزخارف البديعة الجميلة على واجهة أجنحته..

ان الفراش لم يكن بحاجة حيوية ملحة إلى رسم هذه الزخارف.. فالأجنحة كان باستطاعتها أن تقوم بوظيفتها بكفاية ومهارة دون أن

تكون منقوشة.. فما السر فى نقشها..

إذا قلنا إنها مثيرات جنسية وإن الأنثى تتجمل للذكر.. فإن السؤال يظل مطروحا.. ولماذا يختار الذكر الأنثى الأجمل.. إن الجمال سيظل يفرض نفسه كهدف.

والسر هو نفس السر الذى جعل شكسبير يتغنى بالشعر.. إنه ليس أكل العيش وإنما هى مثيرات الجمال.. ومغريات الابداع فى طبيعة شكسبير.. وفى طبيعة الفراش.. وفى الطبيعة الحية كلها..

فى جرثومة الخلية الأولى بذرة كل هذه الأسرار الجمالية.. الخلية التى بدأت حياتها بنشدان درجة معينة من الحرارة والجو والغذاء ملائمة لانتعاشها وتكاثرها كانت تضمر فى جوفها غايات أبعد وهى ما لبثت بعد أن ملكت ناصية حياتها فى عقل الانسان أن أفصحت عن هذه الغايات البعيدة فبدأت تنشد الجمال والحق والخير والعدل والسلام.

إن المثل العليا تحت الجلد..

والقيم الرفيعة فى نسيج البروتوبلازم..

وتفسير الانسان على أنه جسم فقط.. أو نفس فقط.. أو عقل فقط خال من مثيرات الروح والوجدان.. تفسير ناقص يهبط بالانسان إلى مستوى عداد منطقى وآلة حاسبة رياضية ويسلب الوجود الانسانى نكهته وطعمه وحرارته.

إن زهرة عباد الشمس.. تتطلع إلى الشمس.

ونباتات الصبار.. تخرج تصانيف جميلة كأنها منحوتة بيد نحات فنان عاكف على ابتكار أفانين الجمال..

والنحلة.. تبنى بيتها فى معمار هندسى بديع.. الطبيعة الحية ليست طبيعية جائعة جنسية ولكنها أيضا طبيعة متفننة عاقلة متطلعة حالمة..

والمثل العليا والأهداف والأحلام والمأمولات الراقية الرفيعة ليست أشياء انفرد بها الانسان.. إنها فى الصميم الحى كله.

إن غرورنا فقط كحيوانات إقطاعية امتلكت أوسع الثروات من الأجهزة والحواس.. هو الذى صور لنا هذه الخرافة.

ونحن من فيضان هذه الثروة علينا.. بدأنا نفيض بقدر على البيئة حولنا.. ونبث فيها نظامنا وقانوننا ونخلق منظوسات وأنماطا جديدة.. فنبنى البيوت والأبراج والمدن والمصانع.. ونبتكر عمارات من الشعر والنغم والألوان.. ونخترع شرائع وقوانين ودساتير ونظما.. ونسينا فى غمرة هذا الطوفان من الثراء.. أن كل هذه النعمة هى التركة التى انحدرت إلينا من أجدادنا الحيوانات.. وأنها قبل أن تصل إلى رأسنا.. كانت فى رأس النملة.. وكانت فى لحاء الشجرة.. وكانت فى لباب الاسفنج.. وفى عصير الصبار المر..

وهذا يعنى أن معجزة الحياة ليست فى مخلوق بعينه.. ولكنها فى النسيج الحى نفسه.. أينما كان هذا النسيج نباتا أو حيوانا أو إنسانا أو خلية تدب فى مستنقع ببطء وعماء دون أن ترى ودون أن

تسمع.. فى البروتوبلازمية.. فى هذه الجيلاتينة الهلامية كأنها ألماظية مرشوشة بالسمسم والفستق..

والذين شاهدوا البروتوبلازمة تحت الميكروسكوب يعـرفون أنهـا تتحرك وأن حبات السمسم والفستق فيها تدور وتدور حـول بنـدقة صلبة فى وسطها هى النواة.. وأنها أحيانا لها جدار يحفظها.. وأحيانا لا يكون لها جدار.. وإنما تكون بضعة هلامية سائبة رخـوة تتلـوى كبقعة زيت سميكة فى الماء..

س

أنا س٣ وأنت لوغاريتم س١٩

اكتشفنا أثناء هذه الرحلة من التفكير والتأمل.. أن الانسان كائن مركب.. وأنه ليس شيئا بسيطا محددا مثل الكرسى والمائدة والمحبرة وإنما هو حقيقة نامية متطورة تتقرر كل لحظة.. تتقرر من الـداخل.. بإرادة خاصة.

وإنه يمكن أن يعيش على مستويات عديدة..

يمكن أن يعيش حياة كثيفة غليظة منحـطة كحيـاة النبـاتات.. كما يحدث أثناء النوم.. فيتضاءل إلى مجموعة وظائف تحدث فى آلية وتلقائية بدون وعى..

ويمكن أن يعيش حياة ثرثارة مألوفة مبتذلة.. تقوده أفكار جاهزة وعادات موروثة وتحركه تقاليد قديمة متبعة.. وتصدر أفعاله مضبوطة بمواعيد يحددها له الناس بالساعة والدقيقة.

ويمكن أن يعيش حياة عميقة يرتد فيها إلى نفسه وينقاد لأفـكاره

ورغباته ويحيا فى زمنه الخاص وتوقيته النفسى الصادر عن إرادته وعاطفته.. وفى هذا المستوى تكون حياته أصيلة.. وتكون أفعاله مدلولات مباشرة لشخصيته.

ويمكن أن يبلغ أعمق وجوده فى لحظة الحب.. ولحظة التأمل ولحظة الابداع.. ولحظة التصوف.. فينفتح شعوره على إحساس بالدوام والأبدية.. ويتذوق لحظة غريبة لا زمنية.. لا شخصية.. لحظة عميقة.. تذوى كل اللحظات وتنتهى كل الأيام وتنصرم السنون.. وتبقى تلك اللحظة شاخصة فى ذاكرته عالقة بوجدانه..

هذا الشعور يدل على أن الانسان مفتوح من الداخل على وجود من نوع آخر غير الوجود الخارجى الجامد المحدود الزمنى الآلى الذى يرسف فى الحتمية والقوانين.. وجود حر يتدفق فى لا مكان ولا زمان ويصدر عن لا أسباب.. وجود تقويمه فيه.. وأسبابه فيه.. وجود تصدر عنه الارادة والشخصية والسلوك والفعل.. ويبدو العالم الواقعى جزءا منه ونتاجا من نتائجه..

وجود عميق مثل النبع الخفى تضرب فيه جذور الانسان وأعصابه فى دوامة الواقع المتقلب المتغير.. وتستمد منه الشعور بأرض ثابتة وسط هذه الظواهر المفككة التى تبرق وتختفى.. وتستمد منه الثقة بأن هناك أمانا.. وسكينة وطمأنينة..

وجود أبدى تبدو فيه الحياة الزمنية حقيقة لمجرد أنها مستمدة منه منتمية إليه.

والنفس لائذة على الدوام بهذا الوجود الداخلى.. لاجئة إليه.. من

القلق وخراب الأعصاب الذى يحدثه الواقع المادى بتقلباته وتغيّراته.

وهذا هو وجود الـ أنا المطلق.. أو الأبدية.. أو الحقيقة.. أو الروح..

ولا أقصد الروح بمعنى الشخصية.. فهذا الوجود غير شخصى.. وهو أعمق من أن يكون شخصيا.. وأعمق من أن يكون متعينا محددا.

إن الواقع المتعين المقسم إلى حركات وانتقالات فى الزمان والمكان.. هو واقع الزمان والمكان.. واقع الظواهر فقط.. أما الوجود الداخلى فهو وجود جوهرى لا يقبل القسمة ولا يقبل التعدد.. إنه حقيقة كل هذه الظواهر وينبوعها.. وهو منبع الشخصية ولكنه أبدا ليس الشخصية.

والحقيقة بسيطة وواحدة وكل ما نشاهده حولنا من تعدد وتباين واختلاف غير حقيقى وظاهرى ومؤقت.. بدليل أنه يمت إلى بعضه.. وينتمى إلى بعضه.. ويخفى تحت تعدده الظاهر وحدة أصيلة ينبع منها..

وقد اكتشفنا أثناء هذه الرحلة الفكرية أن كل المخلوقات هى مجرد تصانيف وتواليف مختلفة من مادة واحدة هى البروتوبلازم ووحدات دقيقة متراصة هى الخلايا.. كلها تصانيف وتواليف من (س).. و س هذه أشبه بالمادة عند ماركس والهيولا عند أرسطو.. إنها الخامة الأولية التى بنيت منها الدنيا.

وحتى صنوف المادة الميتة هى الأخرى تواليف مختلفة من

مفردات بسيطة هى الألكترونات والبروتونات وهى شحنات سالبة وموجبة من الطاقة.. مرة تبدو هذه الطاقة فى شكل حرارة.. ومرة فى شكل ضوء.. ومرة فى شكل كهرباء.. ومرة فى شكل مجال مغناطيسى.. ومرة فى شكل حركة.. ومرة فى شكل حياة.

والعناصر المختلفة من رصاص وصوديوم وحديد ونحاس وكبريت ما هى إلا تواليف مختلفة من هذه الألكترونات والبروتونات.. وفى الامكان تحويل عنصر إلى آخر بتغيير توليفته الذرية.

إن كل التباين والمفارقة والاختلاف بين الموجودات هو اختلاف شكلى ظاهرى قابل للاختزال فى النهاية إلى أصل بسيط واحد مشترك.

إن فى باطن هذا الكون حقيقة واحدة بسيطة.. جوهرا واحدا.. جذرا نبت منه كل فرع من فروع هذه الشجرة.. وكل فرع حقيقى بقدر ما يفصح عن أصله.. وبقدر ما يحمل طابع وراثته فى خلاياه وأزهاره.

حتى الكواكب والنجوم والشهب والمذنبات ما هى إلا تصانيف مختلفة من المادة نشأت من سحب من الذرات والغبار كانت سابحة فى الفضاء.

الوجود منتجات لا نهائية.. وصور لا نهائية من أصل واحد وحقيقة واحدة بسيطة أزلية أبدية محتواها غنى لا نهائى.. يتخلق فى قوالب لا حصر لها.. وتعدد المخلوقات والموجودات هو الدال على هذا الثراء والغنى اللانهائى.

والتعدد هو تعدد فى الواقع وفى الظاهر وفى العالم المرئى..

لكن الخامة الأصلية واحدة.. بسيطة.. وإنما الأشخاص هم الذين يتعددون.. كل شخص هو بذاته توليفة فريدة من هذه الخامة الواحدة.. ولكنه فان فى النهاية..

وكل متعين فان..

وكل موجود فى الزمان والمكان فان..

كل شكل وكل تركيب ينهدم كما تنهدم عمارة مبنية من الطوب والجير والأسمنت.. لكن يبقى المشروع.. يبقى الرسم الهندسى والتصميم الأصلى الذى أقيمت العمارة على وفاقه.. وهو «الصورة» عند أرسطو.. والروح عندنا.. والـ أنا المطلق فى الفلسفة.

وهذا الرسم الهندسى والتصميم الأصلى هو من إبداع الخالق ومن روحه وهو نفحة منه ولهذا لا يموت.

وهذه الروح.. وهذا الـ أنا المطلق.. الذى ليس شخصا بالذات.. ولا نفسا بعينها.. هو الذى يهمس فى داخلنا بدهشة حينما يرى الموت.. ولا يصدقه.. ولا يعبأ به.. لأنه غير ذى موضوع بالنسبة له.. ونحن حينما نفزع من الموت.. نفزع على هذا الـ أنا المطلق.. على هذا الاحساس العزيز الحميم الذى يربطنا بالواقع وبنفسنا.. ولا موجب للفزع.. لأن هذا المطلق فى منطقة أبدية لا موت فيها.. ولا تغير.. ولا تبدل.

إن الذى يموت فينا.. هو ما يموت كل يوم.. ويتغير كل يوم..

أجسامنا.. نفوسنا.. شخصياتنا.. كل هذا يموت. لأنه يموت بالفعل.. يموت بالحياة.. ويتغير.. ويتبدل.

أما الروح.. أما الـ أنا المطلق.. فهو حى أبدا.

نحن مفتوحون من الداخل على هذا الواحد المطلق.. اللاشخصى.. اللامكانى.. اللازمانى..

وبالنسبة لهذا الـ أنا المطلق.. لا معنى للموت أو الفناء أو التغير.. أو التبدل..

إنه كنز لا نهائى. وثروة مطلقة.. تصدر عنها أفعالنا رأشخاصنا وحياتنا.. ثم نموت.. ونشبع موتا.. ويبقى هو فى عالم الروح الذى انبعث منه.

ولأننا مفتوحون من الداخل على هذا المطلق بداخلنا يراودنا الوهم بأننا نحن أيضا لن نموت..

* * *

وهذا هو الالتباس الطبيعى الذى نقع فيه بسبب حياتنا المزدوجة.. وطبيعتنا المزدوجة من جسد وروح.

إننا كنبضات منفصلة يخيل لنا أن لنا كيانا حقيقيا مستقلا عن القلب الدائم.

إن صدورنا من الروح الخالدة وانتماءنا لها بحكم الأصل يوقعنا فى هذا الوهم.. ولكننا فانون.. ونحن فى حالة فناء متصل حتى ونحن

على قيد الحياة.. وخيط الكينونة الذى يربط لحظاتنا ويمسك بتحركاتنا المفككة فى المكان.. هذه الوحدة المتجانسة التى تسرى فينا وتمسك بوجودنا غير المتجانس ليست من عالم الزمان ولا من عالم المكان.. وليست من العالم المشخص المتعين.. وليست منا بقدر مانحن منها.

وهى وحدة ليست بذاتها متعينة.. وإنما هى سياق مطلق غير متعين.. سياق يضم كل المواقف التى نقفها فى حياتنا يضمها فيما يشبه الـ أنا المطلق الذى هو روح كل منا والذى هو شرارة من الروح الالهية التى هى ينبوع الخلق والتى صدر عنها الكل وإليها يعود.

ولهذا نرى أن كل أشكال الوجود تمت إلى بعضها بصلة القرابة الوثيقة.. هناك صلة رحم تجمعها جميعا فى خامة مبدئية واحدة.

وعملية التبادل التى تحدث بين صنوف الموجودات فى كل لحظة تكشف عن هذه الصلة العائلية بينها..

النباتات تأخذ من الأرض أملاح الفوسفات والنترات وتأخذ من الهواء مركبات الكربون وبخار الماء.. ثم تحول هذه المواد المعدنية الميتة إلى أنسجة حية خضراء مثل أنسجتها.

والحيوان يأكل أنسجة النبات ويحولها إلى لحم ودم وعظم وعضلات ثم هو فى النهاية يموت ويتعفن ويتحول إلى تراب وأملاح معدنية ترتد للأرض الأم.

هذه الحلقة الدائرة تكشف عن الخامة المشتركة التى تخلقت منها كل هذه الأشكال المتعددة.

وبالرغم من الخلاف الهائل فى المرتبة الحيوانية بين النمر المتوحش المفترس، وبين الانسان الرقيق الوديع العاقل.. فإن النظرة التى يتبادلها الاثنان فى حلقة السيرك.. نظرة مروض الوحوش إلى الوحوش وهى راكعة عند قدميه.. تكشف عن ذلك الشىء المشترك الذى يجمع الاثنين فى رابطة خفية من الود والتعاطف.

بالرغم من كل الوحشية التى فى النمر.. وكل الوداعة التى فى الانسان.. يلتقى الاثنان فى لحظة تعاطف وحنان.. وكأنهما تعارفا منذ الأزل.. حيث الخالق واحد ومادة الخلق واحدة.

وهكذا من خلف كل العيون يطل علينا جلال الخالق أقرب إلينا من حبل الوريد.

* * *

الواحد الصحيح مختف وراء التعدد.. والشبه الأصيل مختف وراء الاختلاف.. والارتباط الحميم مختف وراء التفكيك الظاهر.

والوجود كله أنشودة طويلة من ملايين الكلمات تفصح عن روح إلهية خالدة. وعن معناها اللانهائى.. وثرائها الممتلىء أبدا بالامكانيات.

والموت معناه أن الخالق يقول لنا:

وعندى المزيد.. وعندى إمكانيات أخرى لا تنفد.. انظروا.. هاكم شيئا آخر تماما.. هاكم مفاجأة أخرى.. هاكم مولد طفل جديد.

الواحـد الصحيح

كلنا من أب واحــد

أكبر شى فى الدنيا هو الواحد الصحيح.

فهو يمكن أن ينقسم إلى اثنين ثم إلى أربعة وثمانية وستة عشرة واثنين وثلاثين.. وأربعة وستين، إلخ، إلخ إلى ما لا نهاية فيعطيك كل الأرقام التى خطرت وتخطر بذهن عمالقة الحساب من أيام إقليـدس وفيثاغورس إلى إينشتين.

إنه واحد صحيح بسيط ولكنه يحتوى فى بطنه على جميع الأرقـام وعلى اللانهاية.

وقد بدأت الحياة بواحد.. خلية واحدة انقسمت فأصبحت خليتين ثم أربعا ثم ثمانى ثم ألوفا وملايين وبلايين تنوعت بحسب البيئـات والظروف وخرج منها كل ما نرى حولنا من زواحف وطيور وفـراشات وديدان وقردة وآدميين.

وقد بدأ الكون بغاز بسيط واحد هو الأيدروجين.. هو الذى يشتعل

الآن فى باطن النجوم ليعطينا النور والدفء مع أشعة الشمس كل صباح..

ومن الأيدروجين فى باطن الأفران النجمية الهائلة جاء الحديد والنحاس والذهب والقصدير والرصاص والكربون والسليكون والزئبق واليود وكافة العناصر التى نراها متحدة ومنفصلة حولنا على شكل مركبات ومواد أولية وصخور ورمال.

ومن عجب أن ذرة الأيدروجين هى الأخرى لا تحتوى إلا على بروتون واحد وإلكترون واحد يدور حوله.

وكل ما يحدث فى باطن النجوم أن هذه الذرة تتفتت لتعطى الضوء والحرارة والاشعاع ويعاد تركيبها فى أشكال جديدة ونسب جديدة.. مرة ١ + ٢ ومرة أخرى ١ + ٣ ومرة ثالثة ١ + ٤.. وفى كل مرة يخرج عنصر جديد إلى الوجود.

وما نرى حولنا على الأرض من تصانيف الغازات والسوائل والجمادات ليست إلا هذه التواليف التى نشأت كلها من قسمة واحد صحيح اسمه ذرة الأيدروجين.

وأنت واحد صحيح تبدو فى نظر نفسك صغيرا ومحدودا ولكنك تستطيع أن تستوعب من المشاعر والمدركات والمعارف ما لا حد له.. فأنت أصغر من العالم بكثير ومع ذلك تحتوى على العالم فى داخلك وتتصوره وتتخيله وتراه..

على شبكية عينك ترتسم صورة واضحة ودقيقة للشمس والقمر والنجوم والمجرات..

وفى عقلك تختصر هندسة الكون إلى شفرة جبرية ومعادلات ورموز وأرقام.. وهى أرقام تثبت لنا كل مناسبة أنها أرقام صحيحة..

ما يتخيله الحاسبون على الأرض من معادلات تثبته سفن الفضاء والصواريخ والأقمار وتبرهن على صحته المراصد وأجهزة الرادار.

إن ذلك الواحد الذى هو أنت.. هو فعلا مشتمل على هندسة الكون وسره ومفاتيحه ومغاليقه فى داخله..

أنت الواحد والمحدود تحتوى على نموذج مصغر للانهاية فى داخلك..

وكل ما فى الوجود من ظواهر ونبات وجماد وحيوان وإنسان هى فى الحقيقة أجزاء الواحد الصحيح.. والشر والخير هما كالظل والنور فى لوحة واحدة كل منهما مكمل للآخر وضرورى لوحدة اللوحة..

كل منا لحن وجملة موسيقية فى سيمفونية متكاملة..

الألم هو إحساس الانفصال.

العذاب هو إحساس الانفصال

أنت تتألم حينما تنفصل فى أنانية عن الكل وتنسى أنك حرف وسطر فى آية الوجود الكبرى أما إذا توجهت إلى الوجود فى شعور حميم بالنسب والقرابة فإنك ستشعر أنك تستطيع أن تؤاخى الأسد وتصاحب ضباع الغاب وتروض الثعابين والأفاعى فتلهو معك وتلهو معها وكأنها عائلتك.. وذلك أن الوجود كله ما هو إلا الوجوه المختلفة للواحد الصحيح..

كلنا أقربون.

أنت القاتل والقتيل..

أنت الذئب والفريسة..

أنت الطاعن والطعين..

وما فواصل المكان والزمان إلا وهم الأوهام.

وعليك بعين وجدانك أن تخترق هذه الفواصل الوهمية لتكتشف الأخوة والنسب والقرابة بينك وبين كل شيء.. ولتكتشف أن حياتك الحقيقية هي في فنائك في هذا الكل الذي تعيش فيه.. لأنك بهذا تسترد وحدتك وحقيقتك.

أنت أحد آحاد الأحد الأكبر، وما تعلن من حروب هي حروب تعلنها على نفسك، وما تقتل حينما تقتل إلا نفسك.

وما الحب بينك وبين الآخرين إلا الحنين إلى وحدتك الأولى.

وما الحب الذي يؤلف الأسر والقبائل والمجتمعات والدول إلا محاولة للعودة بها إلى الوحدة..

وما الجاذبية بين النجوم التي تؤلف المجرات والكوكبات إلا عودة بالكل إلى نظام الواحد.. وفي النهاية الموت الذي يعيدنا ترابا إلى أمنا الأرض ليتغذى علينا النبات كما كنا نتغذى عليه وليصبح الآكل منا مأكولا.. تذكرة لنا بالحقيقة..

والنار التي تأكلنا جميعا وتحيلنا إلى فحم، الأشجار فحم..

والثعابين فحم.. والقردة فحم والآدميون فحم.. وكل الحياة فحم.. إشارة إلى أصلنا الواحد.. فما الحياة إلا تصانيف مادة واحدة هى الكربون..

كل تغيير يعود بصورنا المتعددة إلى الواحد الصحيح.. مادة هذه الظواهر المتباينة المختلفة تعود فى النهاية إلى وحدة بسيطة..

وكما قلنا قبلا إن فى الكائن الحى مئات الأنواع من الأنسجة جلد وأظافر وعظم وشعر وأسنان وعضلات ومخ وكبد ودم وألياف وكلها تحورات خلية واحدة بسيطة هى خلية جنين..

ومن الأرض وفى حقل واحد يعطى الطين الواحد ألف صنف وصنف من الفاكهة والخضراوات والزهور والطحالب والبكتريا.. من الواحد يخرج الكل..

وإلى الواحد يعود الكل..

وكما تبدأ بعود كبريت إلى جوار عود كبريت إلى جوار عود كبريت فتصنع مثلثا ومربعا ومستطيلا ومسدسا ثم هرما ثم مكعبا ثم أشكالا مختلفة من المعمار.. كذلك الوجود المعقد حولك يرتد إلى وحدة بسيطة هى الذرة دخلت فى توآليف وتراكيب لا آخر لها وأنتجت ما ترى من ظواهر مختلفة متباينة تتناقض وتتحارب ويأكل بعضها بعضا ويقتل بعضها بعضا وهى فى النهاية من أب واحد.

واحد صحيح..

الحياة والموات.. والسوائل والجمادات والغازات.. والاشعاعات..

مصنفات شيء واحد.. الفرق بينها فرق نسب وعلاقات وكيفيات.

ذرتان من الأكسوجين تعطيانك ذلك الغاز اللطيف الذى تتنفسه.

وثلاث ذرات من الأكسوجين تعطيك سما زعافا قاتلا اسمه الأوزون..

بل إن نفس الذرتين إذا ركبتا بتشكيل وكيفية مختلفة تعطيان مادة مختلفة.

الاختلاف فى الماهية يرتد فى النهاية إلى خلاف فى التشكيل والكيف والكم.. فى النسب والأرقام والعلاقات.

الفرق بين السكر والنشا هو فرق فى ترتيب وعدد الذرات الداخلة فى تركيب الاثنين ولكن الاثنين من مادة عضوية واحدة هى الكربوأيدرات.

والفرق بين سم الثعبان وبين طبق شهى من البيض المقلى فرق شكلى فى معمار الذرات.. فالاثنان كلاهما مادة واحدة هى البروتين..

والكون شيء واحد يعاد صبه وسبكه فى قوالب وأشكال وتراكيب لا حصر لها..

والأصل واحد صحيح..

الفرق بين شكسبير والبواب الذى يقف على باب بيتك والكلب الذى يهز ذيله أمامك.. والقملة التى تمرح فى رأسه.. هو الفرق فى النسق والترتيب والكيفية التى تصطف فيه الأحماض الأمينية فى الجينات الوراثية.

إنه فرق فى مادة واحدة اسمها .د.ن.ا (حامض ديزوكسى ريبونيوكلييك) تتألف من واحد وعشرين حمضا أمينيا يمكن أن تصطف بطريقة أو بأخرى كما تصطف الحروف فتؤدى إلى مخلوقات مختلفة كما تؤدى الحروف إلى كلمات مختلفة وعبارات متباينة..

إنه فرق شكلى كيفى.. وفرق فى النسق.. وفى الصياغة لمادة واحدة.. إننا أمام خالق مبدع أبدع تصميمات (نفوسا) صيغت على وفاقها مواد أولية واحدة إلى ما لا نهاية من الفرديات.

وكما أن ٢٦ حرفا أبجديا أمكن أن يؤلف منها ملء مكتبات الأرض من اللغات والعلوم والمعارف والفنون والحضارات بمجرد تباديل وتوافيق بين الحروف.. كذلك صانع الحياة أمكنه بالتباديل والتوافيق بين الأحماض والتوليف بينها فى تصميمات مبتكرة أن يصنع من المادة الواحدة التى اسمها د.ن.ا كل ما يدب على الأرض من فصائل أنواع وأجناس وأفراد من شكسبير إلى الميكروب مارة بكافة صنوف الحيوان والنبات التى يأكل بعضها بعضا وهى فى الأصل واحد..

وعلماء الطبيعة يقولون لنا إن الفرق بين ما نرى من ألوان حمراء وخضراء وصفراء وزرقاء هو فرق فى أطوال موجات الضوء.. مجرد فرق رقمى..

والفرق بين أشعة الضوء وأشعة اكس وأشعة جاما القاتلة وأمواج الرادار وأمواج اللاسلكى التى نسمع بها الراديو هو أيضا فرق فى الأطوال الموجية.

أشعة الضوء تقدر أطوالها بالميكرون وأجزاء الميكرون.

وأمواج الرادار بالمليمتر..

.. أما الظاهرة نفسها فهى ظاهرة واحدة اسمها الأمواج الكهرمغناطيسية.

والنتيجة مريحة جدا وسارة، ومثيرة للتفكير وللدهشة بقدر ما هى سارة.. فالفرق بينى وبينك وبين الحمار وبين قالب الطوب من ناحية تركيبنا المادى هو فى النهاية فرق حسابى فى الكم وفرق فى نوعية الترتيب.. فرق يمكن أن يعبر عنه بالأرقام ما دامت مادة الوجود (حيا وميتا) يمكن أن ترتد فى بساطة شديدة إلى أصل واحد ولنسمه س.. فيكون الحمار هو الجذر التربيعى لـ ٣٤٣ س وتكون سيادتك لوغاريتم س ص ٩١ وأكون أنا س ص ع ٣.. حيث تكون ص، ع رموزا للعوامل الكيفية المجهولة التى تتركب منها أجسامنا.

العالم كله تشكيل من مادة واحدة..

وما نرى حولنا أنماط فن تشكيلى.. وحاصل ضرب وطرح وجمع وقسمة شيء واحد..

وبقدر ما يمكن أن ينقسم الواحد.. وبقدر ما يمكن أن تنضاف الأجزاء لتؤلف فيما بينها مجاميع وكسورا وجذورا ولوغاريتمات.. وبقدر ما يمكن أن يدلك علم حساب المثلثات وحساب التفاضل والتكامل على الاحتمالات اللانهائية التى يمكن أن تنتج عن هذه العمليات الرياضية تكون صورة الكون الذى تراه أمامك وتكون حقيقته.

مجرد كميات وكيفيات ومقادير وحدود رياضية وأطوال يقسمها الزمان والمكان إلى الصورة التى تراها بها.

وأنت تضحك الآن وتتساءل.. كيف يمكن اختزال العالم بكل مباهجه وألوانه النابضة إلى مجرد شفرة رياضية.. ومع ذلك أنت تستمع كل يوم إلى الموسيقى وتطرب وتهتز وتنتشى، مع أن هذه الموسيقى ليست فى الحقيقة إلا سباقا من الأرقام.. مجرد تتابع من الذبذبات يتفاوت ارتفاعا وانخفاضا وشدة وضعفا وهى بحساب الموجات الصوتية التى تطرق طبلة الأذن مجرد اهتزازات تتفاوت فى المقدار.. فى النهاية أرقام.. وكيفيات..

المعمار الموسيقى هو معمار هندسى رياضى فى المقام الأول.

إنه رسم فى الفراغ..

كل مقطوعة موسيقية معادلة رياضية لها قوانينها.

ومع ذلك فأنت تنفعل بهذه المقطوعة الموسيقية كما لو كانت كيانا مستقلا ومخلوقا ذا شخصية.

وبالمثل فأنت تنفعل بالغروب كصورة جمالية مع أنه معادلة رياضية من الأطوال الموجية.. وبالمثل يمكن أن يكون الحمار هو فى واقع الأمر «الجذر التربيعى لـ ٣٤٣ س» مع أنك ترى شيئا مختلفا.. مخلوقا له رأس وأذنان طويلتان وذيل، فهكذا تترجم لك حواسك بلغتها الخاصة ما ترى من معادلات رياضية وأرقام مجردة.

وجهاز الارسال التلفزيونى حينما يرسل صورتك عبر الأثير

إنما يرسلها على هيئة أمواج يلتقطها الايريال لينقلها إلـى جهـاز الاستقبال على هيئة نبض كهربائى يتفاوت شدة وضعفا.. مقادير من الطاقة هى فى نهاية الأمر المعادلة الرياضية لصورتك.. ومـا يفعلـه جهاز الاستقبال (وهو نفس ما تفعله الحواس حينمـا تـرى منـظر الغروب) هو أن يترجم هذه المقادير من النبضات الكهربائية. يترجم هذه المعادلة الرياضية إلى مقابلها من الظل والنور على شاشة جهاز الاستقبال فتعود صورتك إلى الظهور بالشكل الذى عرفها به (ولكنها قطعا كان لها شكل آخر وهى على الأثير.. كانت حينئـذ أمـواجا.. كانت معادلة مجردة من الحدود الرياضية والمقادير والكيفيات).

فالعالم إذن له صورتان (وفى الحقيقة صور عديدة بقدر ما تتفاوت وسائل الحس).

صورة هى التى نراه بها

وصورة تقول بها الكيمياء التحليلية والطبيعة والتشريح وهى أرقام ومقادير وكيفيات وعلاقات ترشدنا إليها أدواتنا وأجهزتنا ومقاييسنا.

وصورة مجردة هى النسق الأصلى وهى أشبه برسم فـراغى أو مثال هو الذى خلقه الخالق ابتداء وهى النفس..

لكل مخلوق نفس.. هى المثال والنسق الأصلى الذى صيغ عليه.

وهو تقريب وتبسيط فيه كل أخطاء التبسيط والتقريب.. لأنه يحاول أن يتلمس ويشخص ويجسد ما لا يمكن تجسيده بالكلام.. فحينمـا يصل الفكر إلى منطقة النفس والروح فإنه يصـاب دائمـا بـالعى والخرس فلا يجد اللغة التى يستطيع أن يشرح بها إحساسه.

إن وحدة النسيج بين الموجودات حقيقة مطلقة.

ولكنها وحدة لا تنفى تفرد هذه المخلـوقات وانفـراد كل منهـا بشخصيته وخصائصه.

بل إن هذا التفرد يبدو فى الانسان تفردا مـطلقا ليس فقـط فى النمط السلوكي والشخصية والنفس وإنما حتى فى التشكيل البنـائى المادى.. فنرى كل إنسان قد انفرد ببصـمة أصـبع خـاصة بـه لا يتشابه اثنان فى هذه البصمة حتى ولو كانا توائم.

ومنذ بدء الخليقة وكل واحد من ملايين الملايين من الآدميين له بصماته الخاصة به.

هذا الانفراد المطلق فى الجسم والنفس لكل إنسان ولكل مخلـوق هو حقيقة أخرى تنضاف إلى الوحدة المطلقة التى صدر عنها الكل..

بل إن النسيج الحى ليتفرد لدرجة أنه يرفض أى رقعة من جسم آخر.. فيرفض الجسم قلبا أو كبدا أو كلية تستعار له من جسم آخر لانقاذه.. ويموت مفضلا أن يكون هو هو.. على أن يعيش برقعة من جسد آخر..

إن تفردنا حقيقة مطلقة.

كما أن صدورنا من أصل مشترك حقيقة ثانية.

إننا نخرج من الواحد..

ولكننا نعود فيتوحد كل منا ليصبح «نسـيج وحـده» لا يتـكرر ولا يشبهه شبيه.

بل إن قصة الحياة هى فى ملخصها خروج هذه الشخصية الفردانية المتمايزة من عماء مادة متجانسة كالطين والماء

أكتشافنا للواحد الصحيح خلف تصانيف الحياة يجب ألا يحجب عنا هذه الفردانية والتفرد ولا يخفى عنا أصالتنا كأفراد.

وهى فردانية ذات معنى.. فكل منا بعد أن خرج من الواحد الصحيح قد عاد بدوره محاولا أن يصبح «واحدا صحيحا» فى ذاته له أصالته الخاصة المتميزة.

وهذه الصورة الجسدية المتفردة هى التعبير الخارجى لتفرد النفس الداخلية وأصالتها.

إن تفرد القالب هو التعبير الخارجى لتفرد المحتوى.

تفرد الشكل يدل على تفرد المضمون.

الروح

إذا كنت أنا الجوع فكيف أتحكم فى الجوع.

من أنت..

من أنتم..

من نحن..

من باب التبسيط الشديد يقول الماديون ما نحن إلا أجسادنا نحيا.. ونموت.. ثم لا شىء بعد.. ولا شىء قبل..

الأجساد التى كانت.. والتى تكون الآن.. سوف تتحلل غدا إلى تراب.. ثم تنتهى القضية فلا شىء فى الدنيا سوى مادة.

فى البدء كانت المادة ثم تطورت ثم أصبحت إنسانا.. وغدا يموت الانسان ويسدل الستار على الفصل الأخير من المسرحية.. هذه حقائق موضوعية.. فلنكن موضوعيين.. فلا وجود إلا لما هو

موضوعى.. والجسد شيء موضوعى جـدا قـابل للـدرس والفحص والتشريح.

هذا هو الحل السهل.. السهل جدا..

والقائل هنا لا يكلف نفسه ولو حتى نظرة تحت الجلد.. حتى ولو نظرة إلى داخل نفسه.

فإذا قلت له إن الجسد ليس الانسان وإن داخل الجسد نفسا هى لصاحبها ليست شيئا موضوعيا وإنما هى حقيقة ذاتية وإنه بـالنسبة للانسان نجد دائما ذاتا فى مقابل الموضوع.. قال لك ومـا الـذات.. وما النفس.. إنها مجرد حوافز الجوع والجنس والخوف.. وهى مجرد الاشعارات التى يدرك بها الجسد ما يحتاج إليه.. وإنها للجسد مجرد ملحقات ثانوية على وجوده وخادمة له.. ومـا النفس فى مجمـوعها إلا مجموع ردود الفعل التى تتراكم كل يوم من صدام الجسم مـع بيئته وظروفه.. وهى فى النهاية يمكن أن تكون موضوعا هى الأخرى.

موضوع بالنسبة لمن؟

موضوع بـالنسبة لـلآخرين!!؟؟.. وكيف والآخـرون لا يـرونها ولا يدركون وجودها إلا استنباطا من ظواهر السلوك وهـى ظـواهر أغلبها كاذبة، فكل منا يمثل على الناس بل ويمثل على نفسه، وسلوكه الظاهر قلما يدل عليه.

أم هى موضوع بالنسبة لصاحبها؟!

وكل منا لو اتخذ نفسه موضوعا فإنها تبرد وتستحيل تحت مشرط

التحليل إلى جثة وتستخفى عليه وتهرب من يديه لأنها لا يمكن أن تكون موضوعا ولا أن توضع تحت مجهر مثل ورقة شجرة.. لأن جوهرها بالدرجة الأولى فى ذاتيتها، وحقيقتها أنها الوجه الآخر من الصورة فهى الذات فى مقابل الجسد الذى هو موضوع.. وكلا القطبين الذات والموضوع هما وجها الحقيقة.. فإذا عرفنا المادة بأنها كل ما هو موضوعى فلابد من الاعتراف بأن هناك فى الوجود شيئا غير المادة هو الوجه الآخر من الحقيقة الذى هو الذات.

فإذا عدنا إلى التعريف الساذج للذات والنفس بأنها مجرد حوافز الجوع والجنس والخوف والاشعارات التى يدرك بها الجسد أنه ظمآن أو جوعان أو مشتاق جنسيا فإننا أمام تفسير متهافت شديد القصور فما هكذا حقيقة النفس ولا حقيقة الانسان.

إن الانسان ليضحى بلقمته وبيته وفراشه الدافئ فى سبيل أهداف ومثل وغايات شديدة التجريد كالعدل والحق والحرية فأين حوافز الجوع والجنس هنا.. وحتى العامل البروليتارى فى فيتنام الذى يموت على مدفعه فى سبيل غد لم يأت بعد.. هو إثبات قاطع بأن النفس والذات حقيقة متجاوزة وعالية على الجسد وليست مجرد احتياجات الجسد الحسية معكوسة فى مرآة داخلية، تلك الارادة الهائلة التى تدوس على الجسد وتضحى به هى حقيقة متجاوزة وعالية بطبيعتها وآمرة ومهيمنة على الجسد وليست للجسد تبعا وذيلا.

وإذا كنت أنا الجوع فكيف أتحكم فى الجوع.. إن مجرد الهيمنة الداخلية على جميع عناصر الجسد ومفردات الغرائز هى الكاشفة عن

ذلك العنصر المتعالى والمفارق الذى تتألف منه الذات الانسانية.

عن طريق النفس أتحكم فى الجسد.

وعن طريق العقل أتحكم فى النفس.

وعن طريق البصيرة أضع للعقل حدوده.

هذا التفاضل بين وجود ووجود يعلو عليه ويحكمه هو الاثبات الواقعى الذى يقودنا إلى الروح كحقيقة عالية متجاوزة للجسد وحاكمة عليه وليست ذيلا وتابعا تموت بموته.

والذى يقول بأن الانسان مجموعة وظائف فسيولوجية مادية لا غير.. عليه أن يفسر لنا أين ذلك الانسان فى لحظة النوم.

إن جميع الوظائف الفسيولوجية قائمة ومستمرة أثناء النوم وجميع الأفعال المنعكسة تحدث بانتظام فإذا شككت اليد بدبوس انقبضت بعيدا عنك.. والقلب بالمثل يدق والتنفس يتردد والغدد تفرز والأحشاء تتلوى والأعضاء التناسلية تهتاج.. ومع ذلك فنحن أمام رجل نائم أشبه بشجرة.. مجرد شجرة أو حيوان.. أو حياة بدائية لا تختلف عن الحياة الحشرية.. فأين الانسان.

إن النوم ثم اليقظة وهو النموذج المصغر للموت.. ثم البعث يكشف لنا مرة أخرى عن ذلك العنصر المتعالى الذى يخلق بحضوره فى تلك الجثة النائمة فجأة ويلا مقدمات هتلر ونيرون وكاليجولا فإذا ذلك المدد كالثور الهامد يصحو ليقتل ويغزو ويسحق ويمحق.. وإن الفرق لهائل.. أكبر من أن يفسر بتغير مادى يتم فى لحظات.

إن التبسيط المخل والبحث عن الحل السهل خلاصا من مشكلة بلا جواب هو الذى دفع الماديين إلى هذا التصوير الساذج للانسان بأنه جسد ومجموعة ردود أفعال وأنه من التراب يأتى وإلى التراب ينتهى ولا أفهم كيف طاوعتهم نفوسهم على تصديق هذه النكتة فى عالم رائع محكم تشهد كل ذرة فيه بالنظام والجمال وتتسلسل فيه الأسباب إلى غاياتها ويخدم فيه الموت الحياة ويفتدى الانسان بدمه كل لحظة أشد المثل والأهداف تجريدا.. ولا يذهب أى شىء هباء.

فكيف يذهب الانسان وهو أشرف المخلوقات هباء.. ويتبدد سدى.

ونقف مرة أخرى أمام ملاحظة ثانية تستحق التأمل هى هذه الخاصية التى تتميز بها الحركة.

فالحركة لا يمكن رصدها إلا من خارجها.

لا يمكن أن تدرك الحركة وأنت تتحرك معها فى نفس الفلك.. ولابد لك من عتبة خارجية تقف عليها لترصدها.. ولهذا تأتى عليك لحظة وأنت فى أسانسير متحرك لا تستطيع أن تعرف هل هو واقف أو متحرك.. لأنك أصبحت قطعة واحدة معه فى حركته.. لا تستطيع إدراك هذه الحركة إلا إذا نظرت من باب الأسانسير إلى الرصيف الثابت فى الخارج.

ونفس الحال فى قطار يسير بنعومة على القضبان.. لا تدرك حركة مثل هذا القطار وأنت فيه إلا لحظة شروعه فى الحركة أو شروعه فى الوقوف أو لحظة إطلالك من النافذة على الرصيف الثابت فى الخارج.

وبالمثل لا يمكنك رصد الشمس وأنت فوقها ولكنك يمكنك رصدها من القمر أو الأرض.. كما لا يمكنك رصد الأرض وأنت تسكن عليها وإنما تستطيع رصدها من على القمر.

لا تستطيع أن تحيط بحالة إلا إذا خرجت خارجها.

وعملية الادراك هى إثبات أكيد بأن هناك شيئين فى كل لحظة.. الشىء المدرك.. والنفس المدركة خارجه.

لهذا ما كنا نستطيع إدراك مرور الزمن لولا أن الجـزء المـدرك فينا يقف على عتبة منفصلة وخارجة عـن هـذا المـرور الـزمنى المستمر.

ولو كان إدراكنا يقفز مع عقرب الثوانى كل لحظة لما استطعنا أن ندرك هذه الثوانى أبدا. ولا نصرم إدراكنا كما تنصرم الثوانى بدون أن يلاحظ شيئا.

وهى نتيجة مذهلة تستدعى وقفة تأمل طويلة.

فها نحن أمام حقيقة إنسانية جزء منها غارق فى الزمن ينصرم مع الزمن ويكبر ويشيخ ويهرم (وهو الجسد) وجزء منها خارج عن هـذا الزمن يلاحظه من عتبة سكون ويدركه دون أن يتورط فيه ولهذا فهو لا يكبر ولا يشيخ ولا يهرم ولا ينصرم.. ويوم يسقط الجسـد تـرابا سوف يظل هو على حاله يحيا حياته الخاصة غير الزمنية.. ولا نجد لهذا الجزء اسما غير الاسم الذى نقلته لنا الأديان.. وهو الروح.

وكل منا يستطيع أن يلمس هذا الوجود الروحى بداخله.. ويـدرك

..

أنه وجود مغاير فى نوعيته للوجود الخارجى النابض المتغيــر الــذى يتدفق حولنا فى شلال من التغيرات.

كل منا يستطيع أن يحس أن بداخله حالة حضور وديمومة وامتثال وشخوص وكينونة حاضرة مغايرة تماما للوجود المادى المتغير الذى يتدفق حولنا فى شلال من التغيرات.. وهذه الحالة الــداخلية التــى ندركها فى لحظات الصحو الداخلى والتى أسميتها حالة حضور هــى المفتاح الذى يقودنا إلى الوجود الروحى بداخلنا ويضع يدنا علــى هذا اللغز الذى اسمه الروح.. أو المطلق.. أو المجرد.

ونحن حينما ندرك الجمال ونميزه من القبح.. وندرك الحق ونميزه من الباطل.. وندرك العدل ونميزه من الظلم.. فنحن فى كل مرة نقيس بمعيار.. بمسطرة منفصلة عن الحادث الذى نقيســه.. فنحــن إذن نقيس من نفس العتبة.. عتبة الروح.. فالوجود الروحى يــدل عليــه أيضا الضمير.. ويدل عليه أيضا الاحساس الجمالى.. وتــدل عليــه الحاسة الخفية التى تميز الحق من الباطل والزائف من الصحيح.

هل هذه العتبة خارج الزمن هى الأبد؟.. أو هى زمن آخــر لــه تقويم مختلف.. اليوم فيه بألف سنة.. كما ورد فى القرآن (إن يــوما عند ربك كألف سنة مما تعدون) وكما جاء عن أيام الله.. وهى أيــام غير أيامنا ذهب فى تفسيرها المفسرون كل مذهب.. كل هذه تفاصيل لا يمكن إدراكها.. وهى فى الغالب مجــرد إشــارات ورمــوز تشــير ولا تبين وترمز ولا تشرح.. لأن بيان حقيقة الروح وكنهها أمر فــوق

مستوى إدراكنا.. أما الحكم بوجودها فهو الممكن وهو الواجب والضرورى.

ولعل الروح هى طابع الحسن الذى تركه الخالق على كل منا كأثر من آثار يديه.. ولعلها من روحه هو إذ نفخ فينا من روحه.. فهى هبة منه ونفحة منه وشرارة مقدسة من نوره وشعاع من شمسه الأبدية.. وهى الصورة التى صورتها لنا الأديان.. وهى الصورة الأقرب والأجمل.

ونحن لا نبتعد بعيدا إذا عرفنا هذه الروح داخلنا بأنها المثال وأن علامتها هى الحرية.. حريتنا الداخلية العميقة الباطنة فى أعماق السريرة والتى شاء الخالق أن تكون طليقة من كل قيد، وحفظها من كل دخيل، ووضع جنده خارجها وجعلها قدس الأقداس وحرما محرما على الجميع إلا صاحبها.

فنحن فى أعماق سرائرنا نشاء كما يشاء الخالق ونختار كما يختار ولهذا أخلفنا على الأرض وجعل منا آلهة صغيرة تحكم وجعلها لنا محنة وامتحانا واختبارا وبروفة يكون بعدها سؤال وحساب وإعادة ترتيب فى مقامات يوضع كل واحد فى مقامه الذى استحقه بجدارته.

إن منطقة السريرة هى منطقة الحرية وهى منطقة المساءلة (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى).. إن منطقة النية والاضمار.. هى المنطقة التى يلاحظها الله بعلمه ويقيم عليها حسابه لأنها منطقة الحرية.. وإنما يبدأ الجبر وتبدأ القيود حينما ننطلق من السريرة إلى الفعل ثم إلى التحقيق فى العالم المادى.. هنا تتصادم

الحريات مع بعضها البعض ومع ظروف البيئة ومع المجتمع وتتدخل الارادة الالهية لتحد من شر الشرير ولتفسح المجال للخيـر ولتخفف من ضررنا على بعضنا البعض بمقتضى ما فيها من رحمة ولتمـد كل واحد بمدد من الامكانيات من جنس ضميره واستحقاقه.

ولهذا يستوى عندى أن أقول إن الله خلق لى روحا.

وأن أقول.. إن الله خلقنى حرية.. أو خلقنى فردا متفـردا فـكل عبارة منهما تشرح الأخرى.. وتصف من الأعماق ما لا أسـتطيع أن أراه بالعين أو ألمسه باليد.. أو أجد له ألفاظا ومصطلحات.

وفى منطقة الروح لا نستطيع أكثر من إشارة ولا نجد أكثـر مـن رمز.. حيث نحن على عتبة خارج الزمن وخارج كل شىء محسـوس ومنظور.

الله

وحدة نسيج الموجودات تدل على وحدة الخالق.

منذ عشرين سنة كنا نقف فى مشرحة كلية الطب.. كل أربعة أمام جزء من أجزاء الجثة..

وكنا نظن حينئذ أن حقيقة الانسان ليست لغزا.. وأن فى إمكان المشرط أن يكشف عنها بضربة واحدة.. وأن الجسم ما هو إلا حقيبة إذا فتحتها عرفت كل شىء.

ولكن سنتين طويلتين مرتا.. وأنا أبحث وأنقب خلف اللحم والعظم.. وفى الأحشاء والأمعاء والشرايين والغضاريف عن هذه الحقيقة دون جدوى.

فتحت القلب.. وفتحت الرئتين.. وتتبعت الأعصاب حتى نهاياتها.. وصعدت مع الحبل الشوكى إلى المخ.. وقطعت المخ نصفين.. ثم

قطعت كل نصف إلى نصف.. وانتهيت إلى كتلة رخوة هلامية بيضاء.. قال عنها الأستاذ.. إنها سر الانسان..

أحقا..؟

أهنا يسكن الألم.. وترقد اللذة.. وتنام الارادة.. فى هذه الكتلة المائعة الطرية..

ورفعت رأسى فى قلق وتشكك.

لقد فتحت الحقيبة فوجدت داخلها حقيبة.. وما زلت بعد سنتين من التعب والكد واقفا حيث كنت أمام مجهول.

إن القناع الذى يغلف الانسان ليس ثيابه وحدها.. فجلده ثوب آخر.. ولحمه وعظمه كلها ثياب.. أما هو نفسه فبعيد.. بعيد.. تحت هذه الأقمشة السميكة من اللحم والدم.

وقرأت ثلاثة آلاف صفحة فى كتب التشريح.. وكانت الخلاصة النهائية أن الانسان مجموعة من الأحشاء فى قرطاس من الجلد.

كلام غير صحيح.. من احترامى لجهود السير كنجهام وجراى وجاميسون وبقية عمالقة الطب الذين تخصصوا فى وصف الانسان.

إنهم لم يصفوا الانسان على الاطلاق.. وإنما وصفوا ثيابه

إنهم فى نظرى ترزية من نوع عصرى.. أبدعوا فى وصف موديلات المصارين والأمعاء.

إن القلوب المحفوظة فى برطمانات متحف كلية الطب.. هى فتارين

لتفصيلات مختلفة من القلب.. القلب الديكولتيه.. والقلب الجابونيز..

أما قلب الانسان الحقيقى.. عواطفه ودمه الساخن النابض بالرغبة فلا يوجد إلا فى داخلنا نحن الأحياء

إن حقيقة الحياة غير معروفة..

إنها حركة دبت فى المادة..

حركة واعية هادفة حرة.. وطبيعة هذه الحركة لا يعرفها أحـد.. ولكنها أبدا ليست الجثة على أى حال.

إن أجهزة الجسد حينما تعمل تشبه الأراجوز.. فتبدو للناظر مـن بعيد كأعضاء حية.. تتكلم باختيارها وحريتها.. وهى فى الحقيقة قطع خشبية ميتة تحركها خيوط خفية من وراء خباء.

فى داخلنا يد خفية تحركنا.

فى داخلنا زامر ينفخ فى بوق أجسادنا.. ويلهو بخيـوط أطـرافنا فنتحرك ونمشى ونتكلم.

وكذلك الكون كله.. الحيوان والنبات والجماد.. مجمـوعة أبـواق متعددة.. فى داخلها.. فى قلبها زامر.. ينفخ على الدوام.

والبراهمة الهنود لا يعتقدون أن لكل مخلـوق روحـا تخصـه.. لا يعتقدون أن لكل حمار روحا، ولكل كلب روحا، ولكل نحلة روحـا، وإنما يعتقدون بوجود زامر واحد ينفخ فى أبواق الكون وروح واحـدة تسكنه.. ومعنى واحد تحققه المخلـوقات.. كمـا تحقـق الـكلمات

المتعددة.. الفكرة الواحدة البسيطة.. كما يحقق الرسام والموسيقار والنحات والأديب والشاعر.. المعنى الواحد فى سيل من المخلوقات الفنية.

وفى سفر اليوبانيشاد.. صلاة هندية قديمة تشرح هذا المعنى فى أبيات رقيقة من الشعر.

إن الإله براهما الذى يسكن قلب العالم يتحدث فى همس قائلا:

إذا ظن القاتل أنه قاتل
والمقتول أنه قتيل
فليسا يدريان ما خفى من أساليبى.
حيث أكون الصدر لمن يموت
والسلاح لمن يقتل
والجناح لمن يطير
وحيث أكون لمن يشك فى وجودى
كل شىء حتى الشك نفسه
وحيث أكون أنا الواحد
وأنا الأشياء

إنه إله يشبه النور الأبيض.. واحد وبسيط ولكنه يحتوى فى داخله على ألوان الطيف السبعة

إنه الجنين الذى يحتوى على بذور الصفات كلها

لقد سلك الهنود جميع الموجودات فى كل.. وتصوروا لهذا الكل روحا واحدة.. سموها براهما

وما على براهما إلا أن ينفخ فى البوق ويحرك الخيوط التى تلتقى فى يديه فتتحرك الأراجوزات جميعا على المسرح

وليس لبراهما عرش وليس له ميزان وهو لا يحاسب ولا يعـاقب وهو ليس بشخص على الاطلاق.. إنما هو حقيقة الوجود فحسب.

ولا شك أن هذه الفلسفة الهندية القديمة قد عادت لتبعـث مـرة أخرى فى عشرات المذاهب الأوروبية.. دون تغيير أى شـىء سـوى الاسم.

فما قال الهنود إنه براهما.. اعتقد به شوبنهور الألمانى وسـماه الارادة واعتقد به نيتشه وسماه القوة واعتقد بـه مـاركس وسـماه المادة واعتقد به برجسون وسماه الطاقة الحية واعتقد بـه هيجـل وسماه المطلق.

كلهم قالوا ما قاله بوذا منذ أكثر من خمسة آلاف سنة

إنى أقدم لكم لا هوتا بغير إله.. وعلم نفس بغير نفس.. ودنيا بلا آخرة.. وإن إلهى ليس شخصا.. وليس ملكا.. وليس خالقا لـلأشياء وإنما هو الأشياء ذاتها.

وقال بوذا مجيبا على الفقير الذى سأله: ما هى الروح؟.

ـ هذه غاية التأمل النظرى ياولدى.. هذه صحراء.. وأنـا لسـت بهلوانا

ومحور هذه الفلسفة الهندية القديمة هو هذا السطر المختصر:

إن الله هو الواحد وهو الأشياء.. وإنه لا يوجد خـالق ومخلـوق وإنما يوجد كل.. هناك الكل والله روح الكل..

وفى هذه العبارة خلط واضح واعتساف نتـائج لا تـؤدى إليهـا المقدمات.

فكل ما تقول به الدراسة العلمية التشريحية للحياة والأحياء.. إن هناك وحدة نسيج وإن هناك وشائج قرابة وعـلاقة رحـم بيـن كل الموجودات حتى بين ماهو حى وما هو ميت.. بين تـركيب النجـوم والمجرات.. وتركيب الأشجار والحيوانات.

تماما كما تلاحظ مجموعة رسوم يظهر فيها أسلوب واحد وخامات ألوان واحدة وأنواع ورق متشابهة فالنتيجة الطبيعية أن تقـول.. إن مثل هذه اللوحات لا بد قد رسمها رسام واحد.. هو الـذى انفـرد بخلقها لم يشاركه فيها شريك..

أما أن تقفز من هذه الملاحظة فتقول إن هـذه اللـوحات هـى الرسوم وهى الرسام وإنه ليس لها خالق فإن مثل هذه القفزة هـى تعسف لا منطق له ولا مقدمات تبرره وسببها هو الخلط بين وحـدة الموجود ووحدة الوجود.. وإنك اعتبرت أن الموجود المتعين المحدود هو فى ذات الوقت الوجود المطلق غير المحدد (الله).

والخطأ الثانى هو أنك تصورت أن حواسك هى الحكم النهـائى فأنكرت أن يكون هناك عالم غير العالم المرئى لمجرد أنك لا تـرى غيره.. إذن فلا يوجد غيب ولا آخرة.. ولا يوجد إلا هـذا المـوجود

المرئى والله هو قلب هذا الموجود وحقيقته وانتهى الإشكال.. وهو نوع من التبسيط المخل..

لا يوجد غير الرسوم وهى فى ذات الوقت الرسام.. والرسام هو حقيقتها وقلبها وانتهى الإشكال..

ثم الاعتقاد بالروح الواحدة التى هى روح الكل.. وإنكار أن تكون هناك أرواح متعددة بعدد المخلوقات.. هو تعسف آخر.. هذه المرة قفزة فى الفراغ بدون استناد إلى أدلة أو حيثيات.. إنما هو حكم آخر بدافع المزيد من التبسيط..

ولمجرد التبسيط ينتهى بنا التفكير إلى نتيجة غير مقبولة.. إن الله هو الواحدوهو الأشياء.. وإننا أمام طبيعة وقوانينها وجوهرها ولا شيء غير ذلك فإن سألت من خلق هذه الطبيعة قالوا لك إنها قديمة لا أول لها ولا آخر وإنها هى الله.. فهى أزلية أبدية واحدة ومتعددة.. وهو تلاعب بالألفاظ هروبا من الثنائية التى يفرضها وجود الخالق والمخلوق.. وهروبا من التعدد الجوهرى الذى يؤدى إليه الاعتقاد بأرواح ونفوس متعددة.

والأديان السماوية هى التى قدمت الحل الوحيد لهذا الإشكال وما تقوله الأديان السماوية هو الوحيد الذى يقول به ويقبله التفكير العلمى.

فإذا كانت الدراسة العلمية التشريحية للحياة والدراسة التحليلية الكيميائية لتراب الأرض والكواكب ولمكونات الماء والهواء قد كشفت لنا أن خامات هذه الدنيا واحدة متشابهة وسنن وقوانين متطابقة

تعمل.. فإن النتيجة الطبيعية أن نقول إن خالق الدنيا والكون والحياة لابد إذن أن يكون خالقا واحدا لم يشرك فى صناعته شريكا آخر.. وأنه انفرد تماما بخلق الدنيا.. ولا نقول أبدا إن هذا الخالق هو الدنيا.. وإنه هو الطبيعة.. وإنه هو المخلوقات.

ومرة أخرى تقول لنا العلوم القطعية.. إن ما يقع فى نطاق إدراكنا الحسى ليس هو كل شيء.. وإن العالم زاخر حولنا بموجودات غير مرئية وغير ملموسة وغير مسموعة ومع ذلك هى يقينية مثل وجودنا اليقينى نفسه.. مثل ذلك الأشعة تحت الحمراء والأشعة فوق البنفسجية.. وأمواج اللاسلكى والرادار وأشعة إكس.. ومثل هذه الأمواج كانت موجودة قبل أن نخترع الراديو ومحطة إذاعة ماركونى وجهاز أشعة إكس.. هذه الأمواج كانت تحيط بنا دون أن نراها أو ندرى بها. فالقول بالغيب والملائكة والمخلوقات غير المرئية أمر طبيعى.. والعكس هو غير الطبيعى.. أن ننكر ما لا نرى لمجرد أننا لا نرى مع علمنا بحدود حواسنا أمر غير طبيعى..

والقول بأن الخالق الذى خلق المخلوقات خلق لها نفوسها وأرواحها أمر طبيعى..

فإذا رأينا الدقة والاحكام والانضباط فى نظام الكون من حركة الذرة إلى دوران الأفلاك.. وقلنا.. إن مثل هذا الكون المحكم لا يمكن أن يفلت منه ظالم.. وإنه لا بد من حساب وعقاب لكل من يفلت من العقاب فى الدنيا.. لكان قولنا طبيعيا ومنطقيا مع جميع المقدمات العلمية المشاهدة.. فلا يوجد دليل علمى واحد على

الفوضى فى قوانين الطبيعة.. ولابد لخالق هذه الطبيعة الرائعة أن يكون خالقا عادلا.

والذى يستبعد البعث.. ويصدق أن الجراح الدكتور برنار يبعث قلب رجل ميت بأن ينقله إلى جسد آخر حى فيعود حيا ويكذب: إن الذى خلق برنار والكون الذى يعيش فيه برنار يستطيع أن يحقق معجزة بعث مشابهة.. هو إنسان مكابر محدود الفهم.

وإن تأتى هذه الحقائق على يد بدوى أمى لا يعرف القراءة والكتابة.. فيأتى لنا بقرآن يغير التاريخ ويطابق كشوفات العلم قبل أن تحدث هذه الكشوفات بقرابة ألف وربعمائة سنة هو أمر لا يمكن أن يأتى إلا وحيا وتلقينا من الإله الذى يعلم كل شىء.

والذى يقول لك فى سذاجة.. إن الله رحيم وسوف يدخل كل الناس الجنة وهل من المعقول أن يضع الله رأسه برأسنا ويحاسبنا على كلام قلناه وأفعال فعلناها ونحن بالنسبة لله ولعظمة الله كالنمل أو ذرات التراب أو ذرات الهباء.. غير معقول.. إن الله كبير جدا أكبر من أن يعذبنا.

الذى يتصور الله بهذه الصورة ويظن أنه يؤمن به إيمانا رفيعا.. ينسى أنه بهذا التصور الساذج يطالب الله بالظلم وبأن يسوى بين الأسود والأبيض ويجعل الظالم كالمظلوم والقاتل كالقتيل فى حكمه وهذه هى الفوضى بعينها.

ولو أنه درس القليل من الكيمياء والطبيعة لعلم أن قوانين الله لا تسوى بين الذرات.. حتى الذرات.. وإن كل شىء يتحرك بإحكام

من الألكترون الصغير إلى أجرام السماوات العظيمة فى تـوافق مـع منطق علمى دقيق وإن الذرات تتحد وتتفاعل مع بعضـها بحسـب أوزانها الذرية مع أن هذه الأوزان مقادير ضئيلة جدا.جدا جدا.

وإنه باستقراء عجائب الكون ودقة سيرها وأحكام تـطورها فـإن العقل ليصرخ.. بين يدى هذه القدرة لا يمكن أن يفلت ظـالم ولا أن يهرب قاتل أخطأته قوانين الأرض.

إن العدالة تنتظر الجميع.

يقول هذا الميكروسكوب والتلسكوب والترمومتر والبـارومتر كمـا تقوله الكتب السماوية.

وهى الكتب الوحيدة التى تجيب على لغز الموت إجابة ما زالـت تتحدى جميع العلوم.

فهرست

الصفحة

رقم الإيداع	١٩٩٣ / ٨٠٧٢
الترقيم الدولى	ISBN 977 - 02 - 4218 - 7

١ / ٩٣ / ٩٤
طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

هذه المجموعة

تحرص دار المعارف دائما على تقديم الأعمال الكاملة لكبار المفكرين والأدباء. والدكتور مصطفى محمود واحد من هؤلاء الذين أخلصوا للقلم.. فأثرى ساحة الفكر والعلم.. وطَرَقَ أبوابًا جديدة لم تفتح من قبل.. فتنوع إنتاجه بين القصة والرواية والمسرحية وأدب الرحلات.. إلى جانب تلك المؤلفات التى تحفل بالنظرات المعاصرة للفكر الدينى والمقارنة بالنظرات العلمية الحديثة.. والتى لاتزال تثير مزيدًا من الجدل المفيد.

وقد امتد تأثير فكر الدكتور مصطفى محمود إلى القراء العرب من الخليج إلى المحيط كما ترجمت بعض أعماله إلى اللغات الأجنبية شاهدة بقدرته على العطاء المتميز المتنوع.

